الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر

- الأربعة الكبار الذين اتفقوا على عزل عبد الناصر
- رجلان وراء نهاية المشير عامر
- الصراع السري بين المباحث والمخابرات العامة

ضياء الدين بيبرس

ضياء الدين بيبرس

الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر

كما رواها : محمود الجيار

وسجلها : ضياء الدين بيبرس

الناشر : مكتبة مدبولي

كلمة ونصف

ممكن جدا ان يقال أن كثيرين انتفعوا بعبد الناصر دون علمه حيا •• وممكن جدا ـ أيضـا ـ أن يقال ان كثيرين انتفعوا بعبد النـاصر ميتا •• فعبد الناصر اسم يبيع •• الهجوم عليه يبيع ••• ورفعه الى مصاف القديسين والشهداء يبيع •• وانتقاده انتقادا موضوعيا يبيع •

وقد قيل ونشر وأذيع أن ضياء الدين بيبرس انشأ فى الصحافة المصرية ومن قبلها الصحافة اللبنانية والصحافة الكويتية تيار أو موضـة مذكرات الشخصيات التى عاشت قرب مراكز صنع القرار فى حياة عبد الناصر ، فاذا كان هذا صـحيحا فاننى اسـتأذن فى ان اضـيف ان وراء معظم من نشرت مذكراتهم بقلمى لا تقـل اثارة أو غرابة أو طرافة عن المذكرات نفسها ••• بل ان هناك مذكرات لم تنشر بعد لشخصيات عايشتها شـهورا طويلة ثم حدثت ظروف وأسباب تمنع النشر أو تؤجله •• وهذه الظروف أو الأسباب تصلح وحدها لكى تكون قصة تكسف شمسها شمس الاخبار والاسرار التى روتها لى هذه الشخصيات ، وقد يأتى وقت أروى فيه تلك القصص الخلفية ، لأنها تشرح النفسيات التى صنعت تصرفاتها مصير زهرة عمر جيلين •

وحينما اتصل بى محمود الجيار لأكون لسانه وقلمه ومنشط ذاكرته فى رواية هذه المذكرات .. لم اتردد رغم ان الكثيرين راهنونى على أنه لا يعرف الكثير ، مما يستحق أن يذاع ، لأنه لم يغص خلال جوهر الأحداث فى حياة عبد الناصر ... ولا بعدها .. وأثبتت الجلسات الطويلة المضنية التى عايشت فيها الجيار أنه يملك ناصية كنز حقيقى من الحوادث والاسرار هى التى ترى بعضها بين يديك .. ولعل كل من لديه شهادة أمام التاريخ الا يتردد فى أن يقدمها ويبوح لها ويرفع عنهـــا حظر التردد أو الخوف أو الاستكانة الى المشى جنب الحيط ... فان من حق الشعب المؤمن أن يعرف كيف كانت تدار الأمور .. لكى لا يلدغ من الجحر مرتين .

« ضياء الدين بيبرس »



محمود الجيار

كلمة .. من محمود الجيار

أصرح بكل ثقة وارتياح لصديقي الكاتب الصحفي ضياء الدين بيبرس بنشر هذه الذكريات السرية عن قصة الزعيم الإنسان البطل جمال عبد الناصر. وقد رويت لصديقي ضياء ذكريات ما حدث تسلسلها بأمانة وأضاف على الذكريات من معلومات أسرارها شخصية. وراجعتها كلمة كلمة. وآمل أن تسد ثغرة في الدراسات التي تناولت حياة قائد بطل عبد الناصر الذي رحل رحمه الله وأصبحت أقول يستطيع بعد رحيله أن ... شمس عبد الناصر

محمود الجيار

سبتمبر ١٩٧٥

كلمة من الناشر

لم يكن معقولا أن يكون هنـــاك نصـــان لهذا المزيج من الاعترافات والذكريات الشخصية التى نقدمها هنا على علاتها ، على أنها شهادة تعتمد على الذاكرة أمام التاريخ ، قابلة للمناقشة ...

فقد حدث فى أثناء طبع هـــذه المذكرات حلقة بعد حلقة فى مجلة « روز اليوسف » أن طلب السيد الجيـــار استحداث اضافات محدودة جدا وتغييرات ضئيلة شكلية لا تغير من جوهر الأحداث كمـــا رواها ، ولا من البناء الكامل الذى أنشأه ضياء الدين بيبرس انشاء بمجهوده وفكره وعلى مدى ستين يوما تفرغ خلالها تفرغا شاملا للتسجيل والتدوين والصياغة . وفى نفس الوقت فان الكاتب القدير الأستاذ صـــلاح حافظ انصـــاع لولائه الايديولوجى فأجرى بعض الحذف المحدود ، واضعا بذلك الحقيقة فى خدمة العقيدة . كما أدى واجبه كرئيس للتحرير فى أحداث بعض الربط بين الحلقات وشىء من التقديم والتأخير وشىء من «المونتاج» ، دون موافقة ضياء الدين بيبرس ، الذى كان فى رحلة خارج البلاد ــ ودون علمه ... ولم يكن ثمة بأس على أية حال فى هذه التعديلات الشـــكلية المحدودة التى لم تتجاوز واحدا فى المائة من الصياغة الأصلية للنصوص ، التى وقع ضياء الدين بيبرس مرتين فى أول وآخر كل صفحة من صفحات نسختهـــا الأصلية ، وسلمها للسيد الجيـــار هى وأشياء أخرى لا داعى لذكرها ، مقابل التصريح الشخصى الشامل بنشر هذه الذكريات ..

وقد رأى الكاتب والناشر معـــا ، حسما لأى نوع من البلبلة ، أن يوافقا على التعديلات المحدودة التى أدخلها السيد الجيار على ذكرياته ، على أساس أنه قد يكون من حقه أن يراجع ما يقول مراجعة بعد الأخيرة ، بمـــا لا يعطل أو يلوى ذراع حقوق الكاتب الأصـــلية ... وبخاصـــة وان

المراجعة لا تحدث أى تغيير جوهرى ولا شبه جوهرى على النص الأصـــلى الذى كتبه ضياء الدين بيبرس ، والذى راجعه الجيار كلمة كلمة ، وأجاز نشره ٠٠٠ ثم ان ضياء يحتفظ بالشرائط المســـجلة بصوت وعلم واذن الجيار ، والتى يروى فيها معظم تلك الذكريات ٠

واحتراما للقاعدة التى أخذ بها الكاتب والناشر نفسيهما ، فاننا لم ننشر هنا التكذيبات التى انهالت على هذه الذكريات فى روز اليوسف ، ونكتفى بالاشارة اليها فحسب ، تاركين الحكم لها أو عليها لذكاء القارىء وفطنته وقدرته على الحكم على مقومات شخصية الســـيد الجيار ، الشاهد الأصلى الذى أدلى بهذه الذكريات ٠٠٠ والاعترافات ٠

« مكتبـــة مدبولى »

الفصل الأول

* خروشوف يصدر أمرا بتأجيل صلاة الجمعة ساعتين
* كيف عرف عبد الناصر بقصة زواج المشير من برلنتى عبد الحميد .
* عبد الناصر عن هيكل : أنا الذى استخدمه وليس هو الذى يستخدمنى .

حملق مدير المخابرات السوفيتية مندهشا فى وجه الضابط المصرى الشاب .... وتبادل مع سيدة سمينة مبتسمة كلمات سريعة باللغه الروسية ، خرجت من فمه كأنها طلقات مدفع رشاش !

كانت السيدة السمينة المبتسمة هى السيدة قرينة الزعيم السوفيتى خروشوف ، وكان الثلاثة ـ مدام خروشوف ، ومدير المخابرات السوفيتى ، والضابط المصرى الشاب ـ جالسين فى الصالة الخارجية المؤدية الى غرفة الصالون فى فيللا خروشوف ... وهى واحدة من سلسلة فيللات فاخرة كانت ، ولا تزال مخصصة لاقامة حكام الكرملين ، فى ضاحية تبعد خمسا وأربعين دقيقة بالسيارة عن موسكو . وكان باب الصالون مغلقا على عبد الناصر

وخروشوف . والزمان يوم أول مايو ١٩٥٨ ، في أول زيارة رسمية لعبد الناصر لموسكو .. وقد عاد الأثنان من الاستعراض العسكرى السوفيتى الشامخ بمناسبة عيد العمال . لم يعودا سويا ، وانما عاد كل بمفرده . وبطبيعة الحال فقد سبق خروشوف ضيفه بدقائق ، حتى يكون فى استقباله عند وصوله ... ويبدو أن عبد الناصر ومرافقه وصلا مبكرين قليلا عن الوقت المتوقع ، لأن خروشوف لم يكن واقفا بباب الفيللا لحظة وصول ركب الرئيس المصرى الراحل ... ولم يكن هناك حرس ولا أى مظاهر تدل على أن بداخل الفيلا أقوى رجل فى الاتحاد السوفيتى . وانما كان هناك طفل صغير أشقر .. ما كاد يرى عبد الناصر ورفاقه حتى أجفل صارخا ، وأسرع يعدو نحو باب الفيلا وهو يجهش ببكاء ينم عن الذعر ...

وخرج خروشوف على الفور ضاحكا ، وتقدم نحو عبد الناصر مصافحا ، وقال له عن طريق المترجم الذى كان يتبع عبد الناصر كظله :

ـ هذا حفيدى ، ابن ابنتى .. هل تعلم بماذا كان يصرخ وهو داخل ؟

ولم ينتظر خروشوف ردا من عبد الناصر وانما استطرد قائلا :

ـ كان يقول : جدى ، جدى ، هناك زنوج على الباب !

وابتسم عبد الناصر ورد على الفور : يعنى عندكم تفرقة عنصرية كما فى أمريكا !

واقتاد خروشوف ضيفه على الفور الى الصالون ، ودخل معهما المترجم .. وبقيت فى الخارج قرينة الرئيس السوفيتى (وكانت قد خفت للقاء عبد الناصر بصفتها ربة الدار) ، ومدير المخابرات السوفيتى وكانت مسؤليته الاشراف الشخصى المباشر على أمن الزيارة ، ثم الضابط الاسمر الشاب ، محمود عبد اللطيف الجيار ، الذى كان ألصق لعبد الناصر من ظله ، لا بحكم منصبه كمدير لمكتبه فحسب ، ولا بحكم مسؤولياته كعين لعبد الناصر على كل ما يمت للأمن الداخلى بالجيش فقط ، ولا بحكم موقعه بصفته الرجل الذى يرى عبد الناصر قبل أى انسان آخر فى الصباح ، ويراه بعد أى

انسان آخر في المساء قبل النوم •• وانما ـ أيضا ـ بصفته صديق عبد الناصر شخصيا وعائليا ، وتلميذه ودائنه أحيانا ، حتى بعد أن أصبح عبد الناصر حاكما، وحارسه الأمين ، ويده اليمنى في المهمات التي تتطلب اخلاص أخ شقيق ، مفتوح العينين ، وتواضع سكرتير •

وامتد انتظار الثلاثة بعض الوقت •• وبدأ محمود الجيار ينظر الى ساعة معصمه في قلق ، ثم تحول في ابتسامة مترددة الى مدير المخابرات السوفيتي يقول له :

ـ أرجوك أن تدخل قاعة الاجتماع وتقول لرئيس جمهوريتنا ان موعد صلاة الجمعة قد حان ، ليتمكن من تأدية الصلاة ، ثم يستأنف المحادثات مع صاحب الفخامة الرئيس خروشوف بعد الصلاة •

وقال مدير المخابرات في أدب : ان تعليمات الفريق نيكيتا (يقصد خروشوف) واضحة حين يكون منهمكا في مباحثات مع أحد الضيوف •• ففي مثل هذه الظروف ليس لأي انسان أن يدخل المحادثات •• متأسف •

فقال الضابط الأسمر الشاب : في هذه الحالة فأنني سأضطر الى دخول الصالون بنفسي دون انتظار لاذن أحد •

وارتسمت دهشة بالغة في عيني مدير المخابرات السوفيتي • فمثل هذا التحدي للأوامر لا يحدث أبدا في بلاده • ولم يلبث أن اعتبر ما قاله الضابط المصري مجرد كلام ، وعاد يبتسم من جديد •

تعليمات بتاجيل صلاة الجمعة !

على أن مدير المخابرات السوفييتي فوجيء بأن الضابط المصري جاد في تهديده وأحس بأن في الأمر شيء لا يفهمه • فقام مترددا الى باب صالون الاجتماع الرسمي • وطرق بخفة ، ثم دلف الى حيث يجلس خروشـوف ، وهمس في أذنه بكلمات •• ثم تلقى منه رده ، وقفل خارجا •• دون أن يقول شيئا لعبد الناصر •

وفى الخارج حيث كان محمود الجيـــار منتظرا على نار ، راح مدير المخابرات يقول له هامسا : ان الرفيق خروشوف ، احتراما لشعور الضيوف الدينى ، قد فوضه فى أن يتصل تليفونيا بمستر أمام مسجد موسكو ، ليؤجل صلاة الجمعة ساعتين فقط ، حتى لا تضيع فرصة الصـــلاة على الرئيس عبد الناصر وصحبه !

ولأن الجيار لم يكن يتمتع بمواهب الديبلوماسيين فى اخفاء مشاعرهم ، فانه لم يتردد فى اعطاء محاضرة لمدير المخابرات السوفييتى عن شعائر صلاة الجمعة ، وتوقيتها •• ثم استطرد قائلا : شوف يا مســـتر •• ان الرئيس خروشوف يقدر يعلن الحرب ، يقدر يطلق الصواريخ ، يقدر يهدد العالم •• لكن ما يقدرش يؤخر صلاة الجمعة !

ثم اندفع الجيار ، غير مكترث باعتراض مدير المخابرات السوفيتى الى صالون الاجتماع ، وفتح الباب • ووقف حائرا أمام نظرة الدهشة التى بدت فى عيون الجميع لظهوره المفاجىء وكان أكثرهم دهشة وانزعاجا ، الرفيق خروشوف نفسه •

وهتف الرئيس الراحل عبد الناصر فى منتصف المسافة بين الدهشة والزجر :

ـ فيه ايه ياجى ؟ (GAY)

وكان عبد الناصر يستخدم كلمة « جى » فى مخاطبة محمود الجيار •• على سبيل التدليل •

وقال الجيار :

ـ اننى رجـــوت الرفيق مدير المخابرات الســوفيتى أن يلفت نظر سيادتك الى حلول موعد صلاة الجمعة ، وخاصة أن أمامنا رحلة طولها ٤٥ دقيقة الى المسجد •• فدخل عليكم القاعة وعاد يقول ان المستر خروشوف أمر بارسال تعليمات الى « مستر » امام المسجد بأن يؤجل صـــلاة الجمعة ساعتين •• وسيادتك تعلم أن تأدية صلاة الجمعة ضمن برنامجك الرسمى ،

واذا حدث فعلا ان نفذ الامام التعليمات وأجل الصلاة ، أو أقام الصلاة دون حضورك ، فان الناس وبخاصة الجالية المصرية المقيمة في موسكو ستقول أن عبد الناصر جاء الى موسكو وكفر !

واذا بعبد الناصر ينفجر في موجة ضحك عارمة •• ونظر اليه خروشوف وقال له :

ـ نريد أن نضحك معك •

فقال عبد الناصر : ان صديقى (جى) يقول لى أنه يعترض على تأجيلك للصلاة ساعتين فالصلاة لا يمكن تأجيلها •• وهو يخشى أن تستغل الدعاية المضادة فى أرجاء المنطقة العربية هذا الموقف وتقول ان الروس أقنعوا عبد الناصر بأن يكفر !

فلوح خروشوف بذعر بكلتا يديه وصاح وكأنه يدفع مصيبة : أذن قم يا صاحب السعادة الرئيس • قم •• ولا تجلب لنفسك ولنا المشاكل !

حوار حول البطاطس :

من يومها لم ينس خروشوف وجه هذا الضابط ولا أسمه •

بل لقد حدث فى اليوم التالى أن تخلف الجيار عن مرافقة الرئيس الراحل الى فيلا خروشوف • واذا بسيارة فاخرة تتوقف بباب السفارة المصرية وتسأل عنه ، ويصعد الدرج ديبلوماسى سوفييتى شاب ليقول له :

ـ ان خروشوف يريد أن يراك ، وقد أرسلنى خصيصا لا صطحابك اليه !

وعلى المائدة ، كانت سيرة محمود الجيار الطبق الرئيسى الذى التهمه الرئيسان على مرآى ومسمع منه •

فقد قال الرئيس عبد الناصر يقدمه الى خروشوف :

محمود الجيار هذا صديقى • وهو ينحدر من عائلة اقطاعية كبيرة ،

وكان أبى يعمل ناظر مكتب بريد وسط اقطاعية أسرته . وكان أبوه يوالى أبى بالمودة . ومن هنا نشأت صداقتنا . وأصـــبح محمود الجيار فى طور الشباب مخلصا لى أكثر من اخلاصة لأسرته ، لدرجة أنه باع طبقته وانضم لثورتنا التى كان أبرز أهدافها القضاء على الاقطاع .

وصفق خروشوف بيديه فى سرور وقال :

ـ آه اذن أنت ايها الشاب اقطاعى عشق الشعب ! ولكن قل لى .. هل كنت اقطاعيا ارستقراطيا أم اقطاعيا فلاحا ؟

ولم يتبين الجيار ماذا بالضبط يقصد خروشوف . ولكن جمال عبد الناصر تطوع بتفسير السؤال :

ـ يعنى هل كنت تكتفى من ثروة عائلتك بالمال الذى يصل اليك ، أم أنك باشرت ادارة زراعتك بنفسك ؟

ثم تحول الى خروشوف وقال له :

ـ الجيار كان فلاحا على الرغم من أنه ضابط فى القوات المسلحة . وهو لا يزال يزرع المتبقى من أرضه بيديه .

فصـــاح خروشـــوف بجذل : نحن الاثنين اذن فلاحان .. ما هو محصولك الرئيسى أيها الشاب ؟

قال الجيار : البطاطس .

واذا بخروشوف يترك الطعام ، والضيفين الآخرين ، ويتحول الى الجيار فى اهتمام مناقشا مشاكل زراعة البطاطس ، وتقاويها ، ومحصولها ، و .. و .. الخ .

وأصبح الجيار منذ ذلك الحين صديقا شخصيا لخروشوف !

لم يبق ممن شهدوا هذه القصة بالطبع الا عدد قليل . فقد رحل عن العالم عبد الناصر ، وخروشـــوف . ولم يبق الا محمود الجيـار ، وزوجة خروشوف التى قد لا تذكرها الآن .

وفي حيـاة عبد الناصر من أمثـال هذه القصص كثير • بعضها يثير الابتسام ، وبعضها يثير الأسى • ولكنها في مجموعها ترسم الصورة التي لم يرسمها أحد بعد :

الصورة الشخصية لرجل التاريخ ، جمال عبد الناصر •

يومياته الخاصة مع الاحداث التي عاصرها ، أو التي شارك في صنعها •

سلوكه اليومي مع هذه الاحداث ، وانفعاله بها،وموقفه منها ، وتصرفه حيالها •

ان هذه كلها أسرار لم يعرفها الا عدد قليل من الذين عايشوه في بيته ، ومكتبه وهي أسرار تلقي مزيدا من الضوء على احداث التاريخ الجافة ، وتشرح كثيرا من خباياها وتفسر كثيرا من غوامضها ، وتكسبها لحما ودما ونبضا وحيـــاة •

وقـد تجنب كل الذين كتبوا عن عبـد النـاصر حتى الآن ، أو رووا ذكرياتهم معه أن يسجلوا هذا الجانب « الشخصي » من تاريخه •

حتى الذين تناولوه حرصوا على أن يكون تناولهم على الهامش ، ومن بعيد ، وبكثير من التحفظ الذي فرضته عليهم اعتبارات مختلفة •

لكننا ، ولهذا السبب بالذات ، قررنا ان نفعل العكس !

قررنا أن نسد النقص ، ونتحدى الحرج ، ونروي التاريخ من بيت عبد الناصر ، من حجرة مكتبه ، وحجرة نومه ، وكابينة طائرته الخاصة ، وحجرات الضيافة أثناء رحلاته فهنا حقا نستطيع أن نفهمه ، وأن نفهم بالتالي كيف شارك في صنع الاحداث •••• ولماذا اتخذ منها هذا الموقف أو ذاك •

والآن •• الى قصة أخرى من خصوصيات عبد الناصر ، ترسم لنا مزيدا من خطوط شخصيته ، ومزيدا من أسرار مصر من خلاله •

كان جمال عبد الناصر آخر من سمع في مصر بقصة زواج المشـــير الراحل عبد الحكيم عامر من ممثلة السينما برلنتي عبد الحميد !

وقد يبدو هذا عجيبا ، لأن الذى كان شائعا بين الناس فى تلك الأيام أن عبد الناصر يستطيع وهو بمكتبه بالقاهرة أن يسمع دبيب النملة فى أسوان •

والواقع أن عبد الناصر انشأ بالفعل جهازا دقيقا للمخابرات ، واستطلاع الرأى العام ، لا يفوته دبيب النملة ، ولكن قناة الاتصال بينه وبين هذا الجهاز كان فيها من يملك أن يحجب عنه بعض المعلومات •

وقد كان هذا ما حدث فى قصه زواج المشير الراحل •

تحالف اثنان من أخلص رجال عبد الناصر (أحدهما سكرتيره الوفى محمد أحمد) على كتمان القصة عنه • وكان السبب هو الطريقة الدرامية المزعجة التى وصل بها النبأ اليهما •

فذات يوم ، طرق باب أحد الرجلين وكاتب معروف ، على أبواب الخمسين من العمر ، يطلب مقابلة الرئيس عبد الناصر لأمر هام • وعندما سئل عن هذا الأمر الهام بدأ يروى قصة غريبة :

قال انه تزوج من نجمة سينمائية شابة • وأنه دعى مع زوجته الى نزهة خلوية فى أحدى استراحات الفيوم التى كانت خاصة بالملك السابق فاروق • وأنه ذهب ليجد أن السهرة تضم عددا من الضباط ، والفنانات • وليجد فى مقدمة المدعوين المشير عبد الحكيم عامر والفنانة برلنتى عبد الحميد •

وقال الكاتب ان أحد الضباط بدأ أثناء السهرة يغازل زوجته ، ويمازحها بطريقة لا تليق ــ فلما اعترض على ذلك زجره المشير زجرا مؤلما وأفهمه ان مجرد اعجاب الضابط بزوجته شرف كبير • فلما واصل الاعتراض أمسك به الرجال والنساء جميعا ، وضربوه علقة ساخنة ، ثم طردوه خارج الاستراحة •• بدون زوجته !

كانت قصة مذهلة •• تشبه المسلسلات التى اعتاد هذا الأديب كتابتها للاذاعة والتليفزيون •

وكان محالا أن تروى لجمال عبد الناصر ، لأنه .. كما يصفه الجيار ..
كان أكثر حكام مصر عفة من الناحية النسائية .. وكان يشمئز من فكرة أن يتزوج الرجل امرأة أخرى غير زوجته ، فما بالك اذا عرف امرأة أخرى بغير الزواج !

وطيب الرجلان خاطر الأديب . ووعداه بابلاغ عبد الناصر بتفاصيل شكواه الفادحة ولكنهما ، بعد انصراف الرجل ، اتفقا على عدم التبليغ !

ثم قررا أن يذهب أحدهما ــ وهو الجيار ــ لمقابلة المشير الراحل ، ومصارحته بما حدث ، ومطالبته بتفسير المسألة .. خاصة وأن تقارير المخابرات وقتها كانت تتحدث عن علاقة بينه وبين برلنتى عبد الحميد .

وذهب الراوى فعلا يقابل المشير .

واذا بالمشير يقلب المائدة ، ويفاجئه بما لم يخطر له على بال !

قال يعنفه ، بكبرياء الصعيدى الأصيل :

ــ عيب الكلام ده .. أنا رجل صعيدى ، لا يقبل الخنا وبرلنتى زوجتى على سنة الله ورسوله !

وذهل الراوى .

ومضت لحظات قبل ان يسأل :

ــ وحكاية الأديب هذه ، وزوجته السينمائية ، والضابط الذى ..

فقاطعه المشير الراحل :

ــ هذه حكاية ألفها تأليفا . لقد طرد من الاستراحة حقا ، ولكن ليس لأن أحدا قد غازل زوجته. لقد كان يعرف ما بين زوجته وبين هذا الضابط . وكان مدعوا الى هذه الجلسة للتفاهم على الطلاق . وكنا نقوم بالوساطة لاتمام الطلاق بهدوء . ولكنه عندما عرض شروطه طلب ثمنا باهظا . فكان ما كان !

وعاد الراوى ، بعد أن سمع هذا الكلام من المشير الراحل ، وهو يتنفس

الصعداء ، فقد ثبت ان المشير زوج للفنانة برلنتي عبد الحميد ، وليس عشيقا لها • كما ثبت أن شكوى الأديب ليست فوق مستوى الشبهات •

وعندئذ فقط •• أمكن ابلاغ جمال عبد الناصر !

والقصة كما ترى تبين ، كما يمكن أن تبين قصص أخرى مماثلة ، أن عبد الناصر لم يكن يسمع دبيب كل نملة كما كان يقال • وأن بعض ما يجرى فى مصر كان يسمع به رجل الشارع قبل أن يسمع به عبد الناصر • وان كثيرا من الحقائق كان يحجب عنه •• ان لم يكن من جانب أصحاب المصلحة فى أخفاء الحقيقة ، فمن جانب الخائفين عليه من مرارتها ، والراغبين من باب الاخلاص له ـ فى تجنيبه قسوة الاصطدام بها !

من هذا القبيل أيضا كانت دراما الصراع بين رجال عبد الناصر وبين الكاتب الأثير لديه : محمد حسنين هيكل •

كان رجال عبد الناصر ضباطا ، وكانوا ينظرون الى هيكل كمدنى تسلل الى ثورتهم دون أن يتحمل المخاطرة معهم • ولهذا كانوا يضيقون به •

وكان هذا الصراع يجرى من وراء ظهر عبد الناصر • وكان يشعر به ، ولكن لا يعرف تفاصيله •• لأن كلا من طرفى الصراع كان حريصا على اخفائه !

ولم يحدث أن طرح النزاع بصراحة أمام عبد الناصر الا مرة واحدة • وكان بطلها محمود الجيار أيضا !

دق جرس التليفون فى مكتب الجيار ، ذات صـــباح من عام ١٩٥٢ ، فرفع السماعة ليجد أن المتكلم هو هيكل :

ــ ادينى الريس بسرعة يا « جى » •

قال الجيار :

ــ من أين تتكلم ؟

قال هيكل :

ــ من سميراميس •

وعلى الفور رد الجيار :

ــ الريس مشغول الآن • وسأطلبك حين ينتهى من المقابلة التى عنده •

ثم وضع السماعة •

كان قد بدأ يغيظه ، على حد قوله ، الحاج هيكل على رفع الكلفة علنا بينه وبين عبد الناصر • كان قد صاغ لعبد الناصر كتاب « فلسفة الثورة » ، ومن يومها تغير سلوكه وبدأ يتفاخر ــ والكلام للجيار ــ بأنه صديق شخصى لعبد الناصر • وأصبح من عاداته أن ينتهز فرصة وجوده فى مكان عام ، فيطلب أمام الحاضرين رقم تليفون عبد الناصر ، ويقول بصوت عال : أدينى الريس يا « جى » •.

ولهذا رفض الجيار ، عندما علم أنه فى سميراميس • ان يصله بالريس • وقال له أنه مشغول •

وبعد قليل ، فوجىء الجيار بالرئيس يطلب منه ان يصله فورا بهيكل •

وكتم الجيار ما بنفسه ، ورد على جمال عبد الناصر قائلا : سأبحث عنه حالا •

كان يعلم أنه فى سميراميس ولكنه كتم هذه الحقيقة •

ثم اتصل بالرئيس قائلا أنه يبحث عن هيكل ولم يجده !

وبعد نصف ساعة عاد الرئيس يطلب هيكل • وعاد الجيار يقول أنه فشل فى العثور عليه •

وتكرر الطلب بعد نصف ساعة أخرى • ثم بعد ساعة • وصاح عبد الناصر بانفعال : يا أخى لو كان هيكل فى آخر الدنيا كان زمانى كلمته •

فأجاب الجيار بثبات : يا فندم لو كنت عارف مكانه فى آخر الدنيا كنت جبته !

ثم وضع السماعة •

وفي اللحظة التالية دق جرس التليفون • وكان الطالب هو هيكل • فلم يعد مفر من ايصاله بالرئيس ، الذي قال له تعالى فورا •

وجاء هيكل •

وبعد وصوله بقليل كان عبد الناصر يستدعي الجيار ويسأله :

ـ كيف تقول لى ثلاث مرات أنك لا تعرف مكان هيكل ، في حين أنه طلبني قبل ذلك وقال لك أنه في سميراميس ؟

واذا بالجيار ينفجر بصراحة :

ـ هذا هو السؤال الذي كنت انتظره من زمان !

ان هيكل يضع نفسه فوق مكانه كصحفي • انه يتحدث عنك كما لو كان يلعب معك في الحارة ، لا كما ينبغي أن يتحدث صحفي عن زعيم صنع ثورة • أنه ينتظر مني أن أضرب له تعظيم سلام ، ويرفع الكلفة معي مادام يرفع الكلفة معك • وأنا بصراحة لا أقبل هذا •

واذا بجمال عبد الناصر يسكت • ويهز رأسه مفكرا •

وكان واضحا أنه يبحث عن قرار يحسم به هذا التناقض وأنه لا يريد أن يتسرع •

وفعلا •• عثر على القرار في النهاية ، وقال :

ـ أسمع يا « جي » • أنت حر تتصرف مع هيكل كما تشاء • ولا أطالبك بتغيير موقفك منه • ولكن لا تطالبني بتغيير موقفي •

ثم أضاف جمال :

ـ أنني أنا الذي استخدمه • وليس هو الذي يستخدمني • أنه يفهمني جيدا ، ويعرف ما يجول في خاطري ، ويعبر عنه بسهولة • وقد جلست

مع رؤساء تحرير جميع الصحف المصرية ، وقضيت مع كل منهم ساعات ، فلم يلفت انتباهي الا هذا الصحفي الصغير • وأنا كفيل بأن « أكبره » حتى أجعله فوق رؤوسهم جميعا •

ثم ابتسم وأضاف :

ـ فلنقسم البلد بلدين يا « جي » أنت تتعامل معه كماتريد • ولكن فيما يختص بي لا تنس أن من حقي أن أجده وقتما اشاء !

ويقول الجبار أنه بعد هذه الحادثة نمت الصداقة بينه وبين هيكل • وتحمل هيكل كثيرا من مزاحه الثقيل معه • وكان من القلائل الذين يقبل هيكل أن يسمع رأيهم فيه بصراحة ، ودون احتجاج •• على أساس القاعدة التي وضعها جمال عبد الناصر : قاعدة قسمة البلد بلدين •

تعليق : عباد السيد الجبار فاستحدث تعديلا لفظيا في قصته التي رواها عن هيكل ••• كما نفت كريمة الأديب المعروف رواية المشير الراحل عن والدها .

الفصل الثانى

* الى ولدنا احمد : والدك يريد مقابلتك : عبد الناصر !
* سر الاعلانات الغامضة التى كان ينشرها فى الأهرام !
* التقارير السرية جبرا التى كان يتلقاها عبد الناصر .

لم يحدث فى التاريخ أن اختار رئيس جمهورية أحد وزرائه عن طريق الاعلان فى الصحف . ولكن عبد الناصر فعلها !

ولم تكن هذه هى الحالة الوحيدة التى لجأ فيهـــا عبد الناصر الى نشر اعلانات ــ فى « الاهرام » بالذات ــ لأغراض تتعلق بالحكم ولم يكن الاعلان ايضا هو الطريقة الوحيدة . وانما هناك حالات تم فيها اختيار وزراء عن طريق البريد . وحالات كان مبرر اختيار الوزير فيها أنه طويل اللسان ، أو جارح النقد !

بل ان أحد هؤلاء وصل الى منصب رئيس الوزراء .. وهو النائب الذى استقال اخيرا من مجلس الشـــعب ليتفرغ لأعماله : الدكتور عزيز صدقى !

ولكن لنبدأ القصة من أولها ..

ذات يوم طلب عبد الناصر صديقه ، وحارســـه ، وخرزته الزرقاء « محمود الجيار » .. لكى يبلغه قرارا بالغ الأهمية .

وتعبير « الخرزة الزرقاء » هنا مقصود ، فقد كان عبد الناصر يتفـاءل بمحمود الجيار .. ويدلله باسم « جى » .

أما القرار الهام ، فكان :

ـ اسمع ياجى . أريد أن تكون عينى التى أرى بها حقيقة ما يجرى ، وأذنى التى أسمع بها زفرات الناس. . ان الاجهزة السرية والعلنية تلون ، تقاريرها عادة بما يرضى الحاكم أو يطمئنه أو يشبع غروره ، أو بما يؤكد أهميتها له واحتياجه اليها . فمن غير المعقول ان يرفع لى وزير الداخلية تقريرا يقول لى فيه ان الأمن غير مستتب ، والا كان معنى ذلك أنه يعرض نفسه للاستغناء عن خدماته . ومن غير المتصور أن الأجهزة التنفيذية ستتولى مصارحتى بمتاعب الناس منها أو بسخط الناس عليها ، والا كانت بذلك تحفر قبرها ... واذن فان صمام الامان الخاص بى ، هو أن أظل على اتصال حقيقى ومباشر بالناس . وهذه هى مهمتك : أن تكون موصلا جيدا ، لا عازلا، لكل الأفكار والاراء والاخبار والشتائم والتهجمات التى تحتويها خطابات الناس . واحذر أن تخفى عنى شيئا مهما بلغت مرارته أو حرارته ... وعلى كل حال يا « جى » فان ناقل الكفر ليس بكافر .

كان القرار الهام اذن هو مراقبة أحـوال النـاس عن طريق الناس انفسهم . عن طريق خطاباتهم المباشرة ، الموقعة وغير الموقعة . وتنظيم هذه العلاقة المباشرة ، وهذه القناة الهامة للاتصال ، باشراف رجل موثوق به .. يقوم بدور الموصل الجيد ، لا دور العازل الجيد .

ولم يكن القرار هاما فقط . ولكنه كان بالغ الصعوبة أيضا ...

لعبة الإعلانات :

كان بريد عبد الناصر يحمل كل ما يمكن أن يخطر على البال من رسائل وأفكار وتبليغات وسباب ومحبة وعداوة •

وأنشأ الجبار جهازا بشريا وظيفيا كافيا لقراءة كل سطر فى هذا البريد قراءة مســتأنية ، وتصنيف خطابات الناس وتحليلها وتوجيهها الى الجهات المختصة مع متابعة منهجية منظمة •

وكانت تعليمات عبد الناصر صريحة :

أولا ــ أن يعرض عليه يوميا ملخص لأى خطاب هام أو عاجل أو يحوى فكرة لامعة أو خبرا خطيرا •

ثانيا ــ أن يرفع اليه كل أسبوع تقرير صريح عن إتجاهات الرأى العام المصرى كما تتجلى فى خطابات الناس ، مع نماذج لأهم الخطابات اللافتة •

ثالثا ــ أن يقدم له تقرير أسبوعى آخر فى منتهى السرية ، يسمى تقرير الرأى العام المعادى » ، يسجل صورة صريحة للخطابات ، المجهولة الامضاء التى كان مرسلوها يأخذون راحتهم فى التهجم عليه •

وكان عبد الناصر يعلق بخطه على هذه التقارير ، ويصدر بشــأنها التعليمات للوزراء المختصين • كذلك كان يحدث احيانا أن يصر على تحديد موعد لبعض مرسلى تلك الخطابات ، على الرغم مما كان يزخر به وقته من مشغوليات فادحة تجعل بعض كبار المسئولين أحيانا يصطفون فى قوائم انتظار طويلة من أجل تحديد موعد لمقابلته •

وكان بعض مرسلى هذه الخطابات يقدمون انفسهم فى صورة غريبة • كأن يرسل أحدهم تلميحات الى أن عنده أفكار امعينة فى موضوع معين ، أو اخبارا هامة بشأن قصة محددة ••• ويختم هذا المرسل خطابه قائلا بما يكاد يكون معناه :

اذا صادفت هذه التلميحات اهتماما منك يا سيادة الرئيس فانني مستعد لرواية كل شيء ، بشرط أن تنتظرني سيارة من رياسة الجمهورية في يوم كذا الساعة كذا في المكان الفلاني ••• فاذا وجدتها في الزمان والمكان المحددين ، فانني مستعد للقدوم الى أي مكان تحددونه لي ، وأن أكتب تحت أشراف معاونيك التفاصيل الكاملة •

أو خطابا يقول ما معناه : اذا أثار هذا الملخص فضـــولك يا ســـيادة الرئيس ، فتفضل بنشر اعلان في الاهرام صيغته كذا في يوم كذا ••• وحينئذ فأنني سأكتب اليك بتفصيل أكثر •

والذي يراجع بصبر وأناة أعمدة الاجتماعيات في صحيفة الاهرام في السنوات ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٨ يجد أحيانا اعلانات غامضة جدا ذات طابع غير عادي مكونة من سطرين اثنين غالبا ، وموقعة بحروف أولى من اسماء مستعارة ••• وكانت هذه الاعلانات تنشرها وتدفع أجرها رياســة الجمهورية عن طريق أفراد عاديين لا ينتسبون في الظاهر الى الرياسة •

وكانت الاهرام أحيانا تمتنع عن نشر هذه الاعلانات لغموضها • وقد اضطر عبد الناصر ذات مرة أن يكلم هيكل في أمر واحد من هذه الاعلانات ، ليجيز نشره ، دون أن يعرف أحد آخر أن عبد الناصر شخصيا هو دافع ثمن الاعلان •

وهنــا يمكن أن تروى حادثتان قد لا يصـــدقهما العقل العادي ••• ولكنهما على أية حال معروفتان لاشخاص أحياء يزيد عددهم قليلا على عدد أصابع اليد الواحدة •

الواقعة الأولى : أنه حدث في يوم من الأيام أن كلف عبد الناصر أحد معاونيه بأن يذهب في سيارة من سيارات الرياسة الى مكان بجوار مستشفى معين ، حدده مرسل أحد الخطابات التي أثارت اهتمامه بشـــده •

ويواصل الجيار روايته : كنا قد حددنا رقم لوحة السيارة في اعلان غامض نشرناه بجريدة الاهرام ، مع بيان الساعة بالضبط التي ستنتظر فيها الســـيارة •

وفى آخر لحظة ، وبينما كنت استأذن الرئيس عبد الناصر فى الذهاب الى هذا المواطن المجهول ، اذا بالرئيس يقول لى : أسمع .. خذنى معك !

وفعلا ركب الرئيس السيارة معى ، وخرجنا من بيته بلا حرس ، بل بدون أن نبين فى الدفتر الخاص بمسير الرئيس وجهتنا . وركب عبد الناصر فى الكرسى الخلفى وأسدل الستائر ... وذهبت الى المكان المحدد . وامتدت يد تفتح مقبض باب السيارة وركب المواطن الى جانبى وهو مبهور لأن رياسة الجمهورية اهتمت بأفكاره الى حد اتباع هذا الأسلوب الغريب .

ولك أن تتصور مدى المفاجأة التى شعر بها ، الى درجة السعادة والفزع مجتمعين وممتزجين ، وهو يرى عبد الناصر شخصيا فى المقعد الخلفى للسيارة !

أما الواقعة الثانية : فأغرب واخطر بكثير :

ففى رسالة من ذلك النوع بدا أن كاتبها انسان عاقل ومثقف وموضوعى ، ومستوعب تماما للموضوع الذى يكتب فيه ، عرض الكاتب ، الذى لم يشأ أن يوقع باسمه ، رأيا هاما فى مسألة كانت تشغل الاذهان ، وكان الرأى الذى عرضه على عكس رأى عبد الناصر على طول الخط ، ومدعما بأسانيد ومعلومات قوية ومركزة ... الأمر الذى أثار اهتمام واحترام عبد الناصر معا .

وقد ختم الكاتب المجهول رسالته بأن لديه تفصيلات أوفى ، وأنه مستعد لأن يوافى بها الرئيس اذا لم يكن فى هذا ضياع لوقته . وأنه ـ على كل حال ـ لا يطلب مقابلة الرئيس ، وانما فقط يطلب اشعارا بأن عبد الناصر مهتم بمتابعة كل جوانب الموضوع . فاذا كان الأمر كذلك ، فانه يرجو أن تنشر رياسة الجمهورية اعلانا فى الاهرام نصه كما يلى : «الى ولدنا أحمد ، أكتب لوالدك وسيهتم بطلباتك . جميل . »

وما كان من عبد الناصر الا أن طلب منى أن انشر الصيغة التالية على حسابه فى الاهرام ، (وأنا أرويها من الذاكرة) : الى ولدنا أحمد ... لماذا لا تحاول أن ترى والدك شخصيا بدلا من أن تكتب اليه ؟ هو سيهتم بطلباتك .. جميل .

وفى مساء نفس اليوم الذى نشر فيه هذا الاعلان الغامض الغريب ، وصلت الى رياسة الجمهورية برقية باسم عبد الناصر يقول فيها مرسلها : ولدكم أحمد يا سيادة الرئيس ينتظر تحديد موعد لمقابلتكم .

وكانت البرقية توقيع : دكتور فلان . وكان اسما معروفا فى الحقل الذى تخصص فيه . ولكن لا يمكن الآن اعلانه طبعا دون موافقته .

وقابله الرئيس عبد الناصر فعلا ، وناقشه فى اعتراضاته على سياسة الدكتور القيسونى المالية ، وطلب منه أن يواجهه بتلك الاعتراضات . ثم طلب منه أن يكتب له عدة تقارير مفصلة حول وجهة نظره .

وبعد قليل ، اختاره وزيرا . وكانت أعجب طريقة تم بها اختيار وزير !

ولكن هذه القصة غير العادية لم تكن بيضة الديك فى أسلوب عبد الناصر فى اكتشاف الرجال والتعرف عليهم . واذكر أنه فى السنة الثالثة للثورة أعجب ، وهو يزور مجلس الانتاج القومى ، بمهندس شاب كان فى درجة وظيفية صغيرة ... وكان سبب الاعجاب ان المهندس الشاب شرح بطريقة موضوعية متزنة حافلة بالثقة بالنفس أمام رئيس الجمهورية الجديد بعض جوانب عمل مجلس الانتاج ، ثم جرؤ على أن يخالفه علنا فى آرائه أمام جمهور المرافقين ، وكانوا من قمة مجلس قيادة الثورة .

وفى الأسبوع الثانى لهذا اللقاء عين الرئيس هذا المهندس الصغير وزيرا للصناعة .

هذه المرة لاحرج فى اعلان اسم هذا المهندس الصغير ، فهو الدكتور عزيز صدقى ، الذى كان قد عاد لتوه من بعثته الدراسية بأمريكا ، وظل يرتقى حتى أصبح رئيسا للوزراء !

« وكان عبد الناصر يعين أحيانا هذا الوزير أو ذاك ... اذا استرعى انتباهه أنه ينتقد الوضع القائم بكثرة ، لا ليحتويه أو ليضمن سكوته كما كان يشاع ، وأنما لكى يريه أن القول غير الفعل ، وأن الانتقاد غير الممارسة ، وأن الذى يده فى الماء ليس كالذى يده فى النار .. وبعد أن يتضح للوزير

الجديد أن شقشقة اللسان شيء غير مكايده المسئولية ، كان يسرحه بالمعروف في أول تعديل وزارى !

وما أكثر ما كان يطيش لب الوزير المعفى بعد أن كان يظن انه مخلد في الحكم ، فسرعان ما كان يمطر عبد الناصر بخطابات من نوع : « والله يعلم ياسيادة الرئيس أنني أريد أن ادخل الوزارة لا للوزارة ذاتها ولكن لكي أكون الى جانبك » .

وفي ارشيف رئاسة الجمهورية في مصر خطابات كثيرة من هـــذا النوع . بل ان العبارة السابقة منقولة من رسالة خطية موقعة من وزير سابق، ملأ الدنيا فيما بعد باحاديث بطولته في وجه عبد الناصر ! (وهو وزير من عهد ما قبل سنة ١٩٦١) .

البريد الأسود :

الى هذا الحد كان عبد الناصر يهتم بالجزء الأسود من بريده « أي الجزء الحافل بالانتقاد أو التهجم أو الاستفزاز » الى حد أن يختار عن طريقه أحد وزرائه المهمين .

وقد كان من مظاهر اهتمام الرئيس الراحل ببريده الأسود أنه كان يقارن بين ما يحتويه ، وبين ما تنقله اليه تقارير أجهزة الأمن . بل آنه كان حين يلغى كثيرا من برامجه اليومية لسبب أو آخر ، كان يبذل قصارى جهده لكي يبقى على عنصرين من هذه البرامج : « تقرير الرسائل الواردة بأسلوب غير لائق » ـ وهو الأسم الذى كان يطلق على البريد الأسود ـ وتقرير الاستماع الى الاذاعات الاجنبية المعادية .

ومن المثير حتما أن يطلع قارىء عن نموذج من « تقارير الرســـائل الورادة بأسلوب غير لائق » .. التى كان عبد الناصر يتلقاها اسبوعيا منذ قرر أن يجعل من خطابات الناس خط اتصال آخر غير تقارير المباحث والمخابرات .

والنموذج التالى تاريخه ١٦ نوفمبر ١٩٦٦ ، ونصه يشرح نفسه بنفسه :

رئاسة الجمهورية .

مكتب الرئيس للشئون الداخلية .

سرى جدا .

بعض الآراء التى تضمنتها الرسائل الواردة بأسلوب غير لائق :

١ - التموين

- شكوى من ارتفاع سعر الارز ، البصل ، العدس .

- قلة المعروض من البصل والصابون والبطاطس .

- الشكوى من حملات التسعيرة والمعاملة القاسية من ضباط التموين .

- التسعيرة لا تمثل الواقع .

- الشكوى من الغلاء بصفة عامة .

- المطالبة بتخفيض أسعار المواد الغذائية الشعبية والاكتفاء برفع أسعار المواد الأخرى غير الشعبية « مثلا تخفيض سعر الجبنة البيضاء يقابله زيادة فى سعر الجبنة الرومى » .

٢ - الاتحاد الاشتراكى .

- تكون جبرا وبالاكراه ولا يمكن أن ينجح .

- طلبة المدارس يجمعوا « هكذا » بالقوة من شتى البلاد للاستقبال .

٣ - الحالة الداخلية :

- حكم فردوسلطان استبدادى مطلق والشعب يعيش فى أرهاب .

- أحل سفك الدماء واستباح الاموال والاملاك .

- الربط بين مساعدات ج . ع . م للعرب والحالة المعيشية .

- حرب اليمن ومن مات من جنودنا بأيدى اليمنيين .

ـ تكونت طبقة جديدة من الضباط والاغنياء والمقاولين والتجار .

ـ لابد من الجزاءات الرادعة ليستقيم العمل بالجهاز الحكومى .

ـ شكوى من تسويق القطن وعدم حصول الفلاح على حقه نتيجة للتسديدات .

والنموذج الثانى بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٦٦ ، ونصه هو الآخر يشرح نفسه بنفسه .. ومرة أخرى يحسن أن يتذكر القارىء ان عبد الناصر كان يفتح عينيه فى الصباح على امثال هذا التقرير .

رياسة الجمهورية .

مكتب الرئيس للشئون الداخلية -

سرى جدا

بعض الاراء التى تضمنتها الرسائل الواردة بأسلوب غير لائق .

(أ) التموين :

ـ ارتفاع اسعار المواد الغذائية : الارز ، الخضر ، الفاكهة ، الاسماك ، اللحوم .

ـ عدم توفر بعض السلع : الحلاوة الطحينية ، الخضار ، الصابون ، العدس .

ـ نقص وزن الرغيف وحالته السيئة .

ـ عدم توفر الدمور والدبلان .

(ب) القطاع العام والجهاز الحكومى .

ـ قانون المؤسسات والشركات وضع في يد لرؤساء سلطة يستغلونها بلا ضمير فى فصل مئات العاملين •

ـ عمت الرشـــوة •

ـ التظلم من منع غلاء الأولاد •

ـ الشـــكوى من تحديد الآجر (فى حده الأدنى) بمبلغ ســـبعة جنيهات رغم ارتفاع جميع الأسعار •

(جـ) اليمن :

ـ كان المفروض ألا يرسل الجيش الى اليمن الا بعد عرض الأمر على مجلس الأمة •

رئيس الجمهورية آخر من يعلم !

على أن هناك تقريرا آخر ، أكثر اثارة للتأمل ، لم يكن من بين التقارير الأسبوعية الروتينية • وانما كان تم وضعه بناء على طلب الرئيس الراحل نفســـه •

فقد استيقظ عبد الناصر ذات يوم ليعلم عن طريق الصحف أنه قد تقرر رفع سعر الكيروسين (الجاز) •• الذى هو الوقود الأساسى لملايين البيوت الفقيرة التى لم يدخلها البوتاجاز بعد •

حدث هذا فى أول مارس ١٩٦٥ •• ومن المصادفات الغريبة ان خبر رفع سعر الكيروسين فى مصر نشر فى الصفحة الأولى من الصحف •• الى جانب خبر آخرزف الى النـــاس بشرى العثـــور على شر بترول جديدة !

وعلى الفور ، طلب عبد الناصر تقريرا عاجلا وصريحا عن انطباعات الناس والرأى العام عن قرار رفع سعر الكيروسين •

وتكمن أهمية هذا التقرير فى أنه وثيقة تفصيلية ، تشرح أسلوب عمـــل مكتب رئيس الجمهورية للشـــئون الداخلية ، وأنه فى نفس الوقت

(بانوراما) هائلة للتناقضات التى كانت فى دولة ما قبل النكسة • ونصه كما يلى :

رياسة الجمهورية العربية المتحدة •

سرى جدا •

انطباعات الرأى العام من الآثار المترتبة على نشر قرار رفع سعر الكيروسين •

(أ) مقدمة :

ـ أثار ما نشر يوم الأربعاء ٣/١ بشأن قرار اخراج الكيروسين من بطاقات التموين ، والغاء نظام الكوبونات فيه وتركه للتداول الحر ، مع رفع سعره الى ٢٠ مليما (ضعف سعره السابق فى البطاقات) ـ أثار موجة من القلق لتوفر عنصر المفاجأة ووضع الجماهير أمام الأمر الواقع •

(ب) توقيت اصدار القرار :

ـ جاء القرار عقب خطبة السيد الرئيس فى عيد الوحدة ، والتى خرجت الجماهير منها بالامل ـ والقرار معنى وعملا يتعارض مع جوهر هذا الخطاب الصريح •

ـ صدوره خلال حملة وسائل الاعلام عن الاكتشافات البترولية ، التى تعيش الجماهير بعدها فيما يمكن أن تحققه هذه الاكتشافات من خير للدولة والشعب •

ـ تعارضه مع ما استقر فى أذهان الجماهير ـ عاطفيا على الاقل ـ عن حكومة السيد صدقى سليمان واتجاهاتها •

(جـ) حول مبررات اتخاذ القرار :

ـ سطحية الأسباب التى نشرت ، والداعية لاتخاذ القرار من واقع اعلانهـا •

ـ أسلوب اعلانه الخفى المبتور فى زحمة الاحداث عالميا وعربيا ومحليا .

ـ دعوى محاربة التجار المستغلين الذين يحققون ربحا من الاتجار فى الكوبونات الوهمية ، وسذاجة هذه الوسيلة فى علاج الظاهرة على حساب الجماهير ، تهربا من مسئولية قمع هؤلاء التجار أسوة بما حدث فى سلع أخرى قد تكون أقل أهمية عند طوائف الشعب .

ـ المقارنة المبتورة بين المخصص لمواطنى الريف ومواطنى الحضر ، والادعاء المزيف بأنه عملية غير اشتراكية . والعلاج الصائب بين فى اعادة النظر فى المقررات على ضوء تجربة الربع قرن الماضية .

ـ التذرع غير المنطقى بتحقيق القرار لوفر قدره ٢ر٥ مليون جنيه من ميزانية تكاليف خفض نفقات المعيشة ، اذ استطاعت الحكومة توفير ٤٨ مليون جنيه نتيجة لضغط مصروفاتها الدورية فى النصف الأول من السنة المالية الحالية ، وكان يمكنها بمزيد من الضغط على بعض المصروفات الترفيهية فى النصف الثانى من السنة المالية توفير ما يزيد عن الاعتماد المخصص للكيروسين .

ـ تحديد سعر اللتر بعشرين مليما على أساس انه السعر السائد خارجا عن البطاقات ، كأسلوب لاقرار أوضاع قائمة ، يفترض أن تحاربها أجهزة التموين كماحدث فى بعض السلع التى تمس شريحة نسبية من المواطنين .

ـ أن أجهزة التموين أخذت تطبل وتزمر فى الشهور الأخيرة حول خفض أسعار الاحذية واللحوم والملابس الجاهزة ، ولكنها باتخاذها هذا القرار قد مسحت كل فضل لها .

(د) ما يدور من اراء حول القرار :

ـ أنه لا يوجد بيت فى الجمهورية العربية المتحدة ريفا أو حضرا لم يتأثر بصورة أو بأخرى من هذا القرار ، فيما عدا فئة نادرة من المستويات

شديدة القدرة ، والتى لا يعتد برأيها فى كل ما يختص بموضوعات تؤثر على المقدرة الشرائية •

ــ من كان يشترى الكيروسين بالكوبونات ، اذ أنه سيضاعف من مصروفه الاستهلاكى •

ــ من كان يشترى من السوق الحر ، اذ كان يأمل فى شرائه بالكوبونات بعد تنظيم البطاقات التموينية الجديدة •

ــ الاستعداد النفسى للجماهير وحساسيتها الشديدة تجاه ثمن أى سلعة تمس حاجاتها اليومية فى الفترة الراهنة مع اقتناعها الشديد بطبيعة المرحلة التى تجتازها والخلاف فى أسلوب التوفير للحكومة وكيفية تدبيره •

ــ تساؤلات عن قضية مستويات الأسعار وارتفاع تكاليف المعيشة ، واستغلال القوى الرجعية لهذا الرفع كسلاح لبث التذمر •

ــ الأزمة الحقيقية فى تمكين القوى المضادة من الربط بالاشاعات والفحيح بين ارتفاع الأسعار وبين الاشتراكية ، وما يترتب على هذا من آثار •

ــ تربط الجماهير بين هذا القرار واقترانه بقرار الغاء الاوكازيونات ، مع الاكتفاء بأسابيع التصفية ، رغما من تيقن المسئولين ان طوائف عديدة من المواطنين تنتظر هذه الأوكازيونات بفارغ الصبر للحصول على بعض السلع الضرورية لها بوفر يجعل أسعارها فى حدود أمكانياتها • وأن حكم الحد من الاستهلاك ، أو أن هذه الاوكازيونات لا تفيد الجماهير ، لا يمكن التذرع بها تبريرا لهذا القرار •

ــ ان الوفر الناتج للدولة مبالغ فيه ، بعد تقلص المبلغ المخصص لخفض نفقات المعيشة فى هذا البند بناء على تنظيم البطاقات التموينية الجديدة • ــ

ــ ان التنفيذ للقرار سيزيد من اعباء أرباب الأسر عند الغالبية العظمى من أفراد الشعب ، اذ سيضاعف المبلغ المخصص للكيروسين فى ميزانية الأسر •

ـ أنه سيرفع بالتأكيد من أسعار نواح معينة يستعمل فيها الكيروسين كاللكوجية والقهوجية •

لماذا ؟

هكذا كانت بعض « التقارير السرية » التي يتلقاها جمال عبد الناصر طوال فترة حكمه •

وكانت هذه التقارير هي التي يبني عليها سياسته وكان يطمئن اليها ـ لأنها الصوت المباشر لجماهير الشعب ـ أكثر مما يطمئن لتقارير المباحث والمخابرات •

ولم يكن غريبـــا هذا الحذر من جانب رجل يعرف ما بين الأجهزة السرية من تناقضات وما قد تؤدي اليه المنافسات بينها !

الفصل الثالث

* الصراع السرى بين المباحث والمخابرات العامة
* ضاع عشرون دولارا من ستة ملايين فماذا حدث ؟
* ما الذى يريده شمس بدران بالضبط ؟

لم يكن سرا فى عهد عبد الناصر ما بين أجهزة الأمن المختلفة من صراع حاد .

أما نشأة هذا الصراع ، والقصص الغريبة التى ترتبت عليه ، فلم يتح لأحد أن يطلع عليها أكثر من عبد الناصر نفسه بالطبع .. وعدد قليل من العاملين معه .

انتم تلخبطون عملنا

من أغرب هذه القصص ، مثلا ، كيف استطاع عبد العظيم فهمى ، وهو رئيس للمباحث العامة المصرية - وهى البوليس المختص بالشئون السياسية - أن يتسلل أعوانه الى عشر سفارات أجنبية معادية فى جنح الليل ، رغم كل احتياطات الأمن فى تلك السفارات - وفتحوا خزائنها السرية بمفاتيح مصطنعة ، ويشيحوا أعينهم بلا أكتراث عن ثروات من

العملات الصعبة • ويحصروا كل اهتمامهم فى الوثائق الحافلة باغرب الأسرار وأسماء العملاء المصريين ثم يعيدوا كل شيء الى أصله بعد تصويره •• ويضعون ، ليلة بعد ليلة ، هذا الكنز المثير من الأسرار فى يد رئيسهم عبد العظيم فهمى ، تلميذ زكريا محيى الدين وصفيه •• الذى قيل فيه أنه كان يسمع فى مكتبه بالقاهرة دبيب النملة فى أسوان •

وأسرع عبد العظيم فهمى بتصوير نسخة ثانية من كل هذه الوثائق والمستندات ، وأرسلها الى المخابرات العامة ، كما كانت تقضى بذلك نظم الأمن السرية الداخلية وقتها اذ كان مفروضا ان تحاط المخابرات بكل حصيلة تحريات المباحث العامة •• ولا تحاط المباحث العامة بشيء من نشاط المخابرات •

واذا بأحد ضباط المخابرات يطرق باب عبد العظيم فهمى مدير المباحث العامة فى نفس يوم وصول صور المستندات السرية ويقول له : المخابرات غير مبسوطة من نشاطكم •

وبذل عبد العظيم فهمى جهدا خارقا ليضبط أعصابه فقد كان يتوقع الشكر لا التأنيب ، وسأل ضابط المخابرات بهدوء •

ـ لماذا ؟

فأجاب ضابط المخابرات : لأن السفارات هى اختصاصنا •• وأنتم بسطوكم على تلك السفارات تتجاوزون مناطق النشاط المسموح لكم به •• انتم نشاطكم يجب أن يتركز فى الأمن الداخلى ، ونحن نشاطنا أساسه الأمن الخارجى مع ما يتصل به من نشاط داخلى ••• وبصراحة انتم هكذا تلخبطون عملنا •

فرد عبد العظيم فهمى قائلا : اذا كنا فى المباحث العامة قد استطعنا العثور على مفتاح للوصول الى أعماق هذه الأماكن •• واذا كان ذلك قد تم فى أمان مطلق وسهولة لاحد لها •• فهل ألام لأننى توصلت الى خدمة الأمن القومى وهو المفروض أنه نفس الهدف الذى نسعى انتم ونحن اليه ؟

فعاد ضابط المخابرات يردد : هذا تدخل في شئون المخابرات •

قال عبد العظيم فهمي : المفهوم أن مجموعة أجهزة الأمن تعمل كفريق كرة متجانس ، يسعى أفراده لاحراز الهدف في شبكة الخصم ••• ولايهم من يحرز الهدف ، ونحن لم نكفر ••• جاءت الينا المعلومات تتهادى لحد باب المكتب ، فهل نقول لها لا نريدك لانك من اختصاص المخابرات ؟

وضاق ضابط المخابرات بهذا المنطق ، وقال لمدير المباحث العامة الذى حكم جهاز الأمن الداخلي البوليسي من أول الثورة حتى عام ١٩٦٥ ، منها أربع سنوات وزيرا للداخلية ـ أطول مدة في الاحتفاظ بالتوازن على ذروة هذا المكان الحساس : على كل حال بعد اليوم لا شأن لك بهذه السفارات •• فسيكون السطو عليها من اختصاصنا نحن في المخابرات •

ورفض مدير المباحث العامة ، وذهب الى وزير الداخلية وقتها وعرض عليه الخلاف ••• فقال له الوزير : استمر في نشاطك كما انت •• فقط لا ترسل صورا منه الى المخابرات اذا كان هذا يثير غيرتهم أو يضايقهم •

« عميد » المخابرات يستدعى « لواء » المباحث !

ولم تنقطع الحساسيات أبدا بين المخابرات وبين المباحث العامة •• وكانت هذه الحساسيات أحيانا تعبر عن نفسها على هيئة شكليات بروتوكولية ليست في صميم النشاط السرى لهذه الأجهزة الغامضة •• وعلى سبيل المثال فقد بلغت هذه الحساسيات ذروتها يوم تولى صلاح نصر منصب مدير المخابرات العامة ، واذا بمدير مكتبه يرفع سماعة التليفون ويطلب اللواء عبد العظيم فهمي ويقول له :

ـ البيه مدير المخابرات عاوز يشوفك •• وقد حدد لك غدا الساعة الثانية عشرة ظهرا لكى يراك •

فاذا بعبد العظيم يقول له : قل للبيه مدير المخابرات اذا كان عاوز يشوفني يشرفني في مكتبي بوزارة الداخليـة ، وسـيجدني أشـيله على العين والرأس •

... فقد كان عبد العظيم فهمى بدرجة لواء ، وكان مدير المخابرات العامة وقتها بدرجة عميد . وكان عبد العظيم فهمى أكبر سنا وأقدم خدمة وأعمق خبرة بشئون المطبخ المصرى للأمن الداخلى ، وعز عليه ان يستدعيه مدير المخابرات عن طريق مدير مكتبه ، وكان عبد العظيم فهمى يعمل كالآلة حوالى ستة عشر ســاعة فى اليوم على مدة ٣٦٥ يوما فى السنة بلا اجازات ولا حتى فى أيام الأعياد الرسمية . ووصل الى حد أنه كان يعرف كل شىء عن كل انسان ، والى أن أصبح خزانة حية متنقلة للأسرار العامة والخاصة وكان أحد القلائل من غير رجال الجيش الذين وصلوا الى أعماق المراكز الحساسة للسلطة .

واذا بزكريا محيى الدين وزير الداخلية وقتها يستدعيه فى اليوم التالى ويقول له ضاحكا :

ـ وقعتك زى بعضها يا عبد العظيم .. انت صحيح رفضت تروح تزور مدير المخابرات ؟

فقال له عبد العظيم فهمى : نعم يا سيادة الوزير .. ولو كنت أنت مكانى لفعلت ذلك .

قال زكريا محيى الدين : ولكن صلاح نصر بدرجة وزير .

قال عبد العظيم فهمى وفى وجدانه ذكريات مريرة من تدخل رجال المخابرات فى عمل المباحث العامة فى السنين الأولى للثورة : انى أحتكم الى ضميرك الأمنى يا سيادة الوزير : هل من الممكن ان يكلف صلاح نصر مدير مكتبه باستدعاء مدير المخابرات العسكريه بهذه الطريقة ؟ ان مدير المخابرات العسكرية أقل منى رتبة فهو عميد وأنا لواء .. ومع ذلك فهل من الممكن أن يعامله مدير المخابرات العامة هذه المعاملة ؟

واقتنع زكريا محيى الدين وقال لعبد العظيم فهمى : عندك حق . سأطلب من صلاح نصر ان يصلح خطأه ...

ومرت أربعة أيام لم يتصل خلالها صلاح نصر بعبد العظيم فهمى كما

وبعد زكريا محيى الدين •• وفى اليوم الخامس دق التليفون فى مكتب مدير المباحث العامة •• واذا بالمتحدث زكريا محيى الدين ، واذا به يتكلم من مجلس الوزراء •• واذا به يسأل : أنت لم تذهب بعد لزيارة صلاح نصر ؟

فقال عبد العظيم فهمي : لا ••• اتفاقى معك كان صريحا يا سيادة الوزير •• ان يدعونى بنفسه للزيارة وهذا لم يحدث •

فقال زكريا محيى الدين : اذا ضع السماعة الآن وهو سيطلبك فورا •••

وقد كان • واتضح أن صلاح نصر كان قد شكا للزعيم الراحل عبد الناصر من أن مدير المباحث العامة رفض أن يذهب اليه ، فانتهز عبد الناصر فرصة اجتماع مجلس الوزراء ، وقال لزكريا محيى الدين :

ـ أيه الحكاية ؟

وروى زكريا محيى الدين القصة للرئيس الراحل ، وكان معجبا من الأصل بأسلوب عبد العظيم فهمى فى العمل والتعامل ، فقال عبد الناصر : مدير المباحث عنده حق ، وهو رجل يعطى الناس حقوقهم ، فلا أقل من أن يأخذ حقه ••

وأمر بأن يسترضى مدير المخابرات العامة مدير المباحث العامة •• ثم فى أول وزارة شكلها على صبرى فى عام ١٩٦١ عينه وزيرا للداخلية •

المخابرات تدبر مقلبا :

فى أوائل الستينات بدأت القصة المثيرة للحصار الذى فرضه شمس بدران وصلاح نصر حول عبد الناصر فى الفترة ما بين ١٩٦١ الى عام ١٩٦٧ •• وكان هذا الحصار يستلزم أن يسقط جهاز وزارة الداخلية كاملا ، بما فيه المباحث العامة ، فى يد شمس ونصر •• بينما كان عبد الناصر يؤمن بنظرية توازن الاضداد بين مراكز القوى ، حتى لا تستأثر قوة بالسلطة دون أخرى •

ولكى يتم لهما السيطرة ، فقد كان لابد أن تتجمع فى أيديهما كل التحريات • وكان لمدير المبـــاحث العامة حق الاتصـــال مباشرة برئيس الجمهورية ، ثم تأكد هذا الحق لما أصبح المدير هو وزير الداخلية فى عام ١٩٦١ •• ولهذا فان تفكير شمس ونصر هداهما الى أنه لابد من تشـكيك عبد الناصر فى جهاز البوليس كله •• لا عن طريق الادعاء بعجزه فحسب ، بل عن طريق التشكيك فى ولائه أيضا ـ ثم تكون الخطوة التالية هى أن يتولى منصب وزير الداخلية ضابط من المخابرات ، وهو ما حدث فعلا منذ سبتمبر ١٩٦٥ حتى حركة القضاء على مراكز القوى على يد أنور السادات فى ١٤ مايو ١٩٧١ •

وقد سنحت هذه الفرصة فى أغسطس ١٩٦٥ وكان معظم الوزراء فى الاسكندرية ، ومن المقرر أن يسافر الرئيس الراحل عبد الناصر فى اليوم التالى الى جدة للاجتماع بالمرحوم الملك فيصل ـ وهو الاجتماع الذى أسفر عن اتفاقية جدة الخاصة بتصفية الوجود المصرى فى اليمن ـ واذا بالمشير عبد الحكيم عامر ، وكان وقتها يحمل لقب النائب الأول لرئيس الجمهورية ، يستدعى عبد العظيم فهمى وزير الداخلية ويقول له :

ـ ماذا تفعل فى الاسكندرية وقد كادت القاهرة تقع فى يد انقلاب ينظمه الأخوان المسلمون ؟ ان المخابرات العامة انقذت اعناقنا بأعجوبة من الشنق • وأنت ووزارة داخليتك نائمون فى العسل •• عندك طائرة فى مطار الدخيلة تنتظرك ، تركبها أنت وأعوانك فورا ، ومن مطار القاهرة الى مكتبك لتنظيم عملية تصفية المؤامرة •

فقال عبد العظيم فهمى للمشير : سيادتك تشير الى تقارير ثبت أنها غير صحيحة ولا توجد مؤمراة اخوانية ولا حاجة • وأنا مسئول •

فقال عبد الحكيم عامر : وكمان بتكذب تقارير المخابرات ؟ على كل حال تأخذ الطائرة الى القاهرة الآن •• ولنا بعد ذلك كلام •

فقال عبد العظيم فهمى للمشير : ولكن الرئيس سيغادر الاسكندرية غدا الى جدة ، وأمنه الخاص من مســـئوليتى • وهو رأس النظام •• ومن غير

المعقول ، حتى اذا افترضنا أن هناك مؤامرة ، أن أترك رئيس الجمهورية فى الاسكندرية وأسافر أنا الى القاهرة ...

قال عبد الحكيم عامر : هذا أمر .

وسافر عبد العظيم فهمى الى القاهرة بالطائرة . واذا بشمس بدران يذهب الى الرئيس عبد الناصر ويقول له ان وزير داخليته ترك الاسكندرية تزخر بخلايا الأخوان المسلمين المتربصة لاغتيالك ، وللقضاء على النظام ، وذهب الى القاهرة لغرض غامض !

وفى نفس الوقت ، تلقى الرئيس الراحل تقارير تعلن اكتشاف مؤامرة ناضجة لاغتيال كل الجهاز الحاكم ، والانقضاض على الحكم . وقالت التقارير أن وزير الداخلية لا يعلم شيئا عن هذه المؤامرة وطلبت التقارير النور الاخضر للمخابرات ، للتحرك بحرية للقضاء على المؤامرة ، فان وزير الداخلية وكل أجهزة المباحث العامة « نايمين فى العسل » !

وكان الوقت ضيقا ، ورأس عبد الناصر مزدحمة بهموم اليمن ، فسافر وقد تحركت فى نفسه الوساوس تجاه وزير داخليته وجهازه .

ولما عاد عبد الناصر من جدة ... لاحقته تقارير المخابرات بأن وزير الداخلية عبد العظيم فهمى « غير متعاون » معها ، وأنه كان يهرب بعض المتهمين الأخوانيين المطلوب القبض عليهم .

وبلغ من ارتفاع درجة حرارة شكوى المخابرات من وزير الداخلية ان الرئيس الراحل رأى الوزير فى استقباله فى أثناء عودته من رحلة له .. وكان مع الرئيس السيدة الجليلة قرينته .. واذا به يتركها جانبا ، ويشيح عن كل المستقبلين ، ويأخذ وزير الداخلية من ذراعه من صفوف المستقبلين ، وفيهم وزراء وسفراء ، ويسير به الى الخلف ويهمس له :

ـ أيه اللى انت عامله ده يا عبد العظيم ؟ . المخابرات بتقول أنك بتهرب المتهمين المطلوب القبض عليهم .

فقال الوزير : هذا كلام جزاؤه السجن وليس العتاب يا سيادة الرئيس .. اذا كان صادقا .

قال الرئيس الراحل : حين أراك واستمع اليك تزول فى نفسى الشكوى ، ولكن ما الذى يجعل المخابرات تقول ما تقول ؟

ولم يجرؤ عبد العظيم فهمى على أن يواجه الرئيس الراحل بأن صلاح نصر وشمس بدران يرسمان خطة لحصاره أو احتوائه ، واقناعه بالاعتماد عليهما مائة فى المائة .

وانما كان كل ما فتح الله به عليه هو أن قال : يا سيادة الرئيس .. المخابرات احيانا تطلب منى لبن العصفور فأحضره ، ولكن بشرط أن تعطينى الوقت الكافى ، تصور يا سيادة الرئيس أنهم دأبوا على ان يرسلوا لى فى الساعة الثالثة صباحا كشوفا باسماء اشخاص مطلوب اعتقالهم على أن يتم هذا الاعتقال والتسليم فى ادارة المخابرات قبل السابعة صباحا .. وأحيانا يكون هذا مستحيلامن الناحية الزمنية البحتة . فبعض هؤلاء المطلوبين غيروا عناوينهم عشر مرات على الأقل ، وبعضهم مات ، وبعضهم هاجر من سنين ، أو فر . فكيف أذهب فى الثالثة صباحا مثلا الى السعودية لاحضر متهما مطلوبا وأعود به قبل السابعة صباحا الى المخابرات العامة ؟

فقال الرئيس الراحل معلش يا عبد العظيم شد حيلك .

وطار عبد العظيم فهمى من وزارة الداخلية بعد أقل من شهر من هذا الحديث . وبعدها طار الى بودابست سفيرا لمصر فى المجر .

عبد الناصر رفض النظام الامريكى

وفى الحقيقة فان الصراع السرى لا ستيلاء جهاز المخابرات على جهاز وزارة الداخلية المصرى بدأ بعد ميلاد الثورة المصرية بشهرين .

خلال هذين الشهرين ألغى البوليس السياسى ، وهو البوليس المختص بالقضايا السياسية . بعد ما نسب اليه من أهوال وتعذيب فى عهد ما قبل

الثورة • وبعد شهرين اكتشفت الثورة أنه لا يوجد نظام فى العالم ، سواء كانت ينتمى الى الشرق أو الغرب ، يخلو من مثل هذا الجهاز •• فأعادت انشاءه باسم « المباحث العامة » • وشـــكلته أول الأمر من ضباط بوليس معظمهم من الأخوان المســلمين • الأمر الذى عزز يقين الناس بالانتمـاء الاخوانى لجمال عبد الناصر•ولكن بعد شهرين أخرين شتت الجهاز الجديد، وتكون مكانه جهاز مباحث عامة جديد تماما برئاسة عبد العظيم فهمى ، الذى كان مجرد ضابط بوليس شاب حتى ذلك الوقت ، أمضى مدة خدمته كلها فى القاهرة ، وهذا ما لم يحدث لاى ضابط بوليس آخر فى التاريخ •

وكان معروفا عن عبد العظيم فهمى أنه جاد و « كشر » ، ولا يستسيغ المزاح ، وليســت له هوايات الا الذهاب الى مكتبه فى الصــباح الباكر ، والانصراف بعد منتصــف الليـل •• وكان عبد العظيم فهمى وقتها برتبة « قائمقام ـ أى عقيد » ، واكتشــف ان الجيش انشــأ فريقـا من رجال المخابرات يراقبون جهــازه علنـا من حجرة مجاورة ، وكان أكبر رجال المخابرات برتبة يوزباشى « نقيب » • ولكنه كان يملك من السلطات ما يجعله يستدعى ضباط بوليس أكبر منه رتبة بدون استئذان رئيس الجهاز الأعلى « عبد العظيم فهمى » ، الذى رقى الى رتبة اللواء بعدها بقليل •

وما لبثت هذه المجموعة من ضباط المخابرات ، وكان اسمها « جهـاز التحريات » ، أن تقدمت بمشروع ادماج المباحث العامة فى المخابرات العامة، بحيث يتحول جهاز البوليس الى مجرد ادارة فى يد رجال المخابرات • وقالوا أن هــذا هو النســق الســائد فى جهاز الاســتخبارات الاتحادى فى أمريكا F B I بل ان عبد العظيم فهمى يقول أنه اكتشف فى أثناء طرح المشروع للنقاش داخل مجلس قيـادة الثورة أن ضــابط المخابرات « جندوا » بعض ضباط المباحث ليكونوا عينا عليه وعلى جهازه •• فطلب موعدا لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر وقال له : يا سيادة الرئيس •• لماذا تضعون البيض كله فى سلة واحدة ؟ وما هى مصلحة النظام فى أن يعتمد على عين واحدة ليراقب ما يحدق به وبالبلاد من اخطار ؟

واقتنع عبدالناصر بالفكرة ، ولم يمل الى الأخذ بنظام الأمن الأمريكي. وأصدر تعليماته بأن يبقى جهاز المباحث البوليسى وجهاز المخابرات العامة منفصلين .

وفيما بعد استحدثت أجهزة رقابية أخرى ، مثل مخابرات رئاسة الجمهورية ، وهو جهاز مستقل تماما عن المخابرات العامة .

وكانت وجهة نظر عبد الناصر فى هذا التعدد فى الأجهزة أنه يضمن العدالة عن طريق مضاهاة ومقارنة ومطابقة المعلومات المتجمعة لدى كل جهاز عن مسألة بذاتها .

ولكن سرعان ما خاضت هذه الأجهزة حربا ضارية ضد بعضها البعض ، وفى الوقت نفسه فانها جميعا تبارت فى جمع المعلومات فى كل الاتجاهات وبلا هدف فى كثير من الأحوال غير التنافس فى معرفة كل ما يمكن عن كل الناس ، وشاع نوع من الاهتمام الخاص بجمع كل ما يمكن جمعه عن « النقط الضعيفة » والنزوات الخاصة لجميع الشخصيات بلا استثناء .

وقد حدث أن وقع جهاز المباحث ذات يوم على خبر يقول ان بوليس الآداب قرر عمل كمين لشقة خاصة يملكها كاتب روائى كبير ، ويتردد عليها صديق روائى آخر ، لأن هذا الصديق كان يجدد شقته ويغير ديكورها .. فما كان من وزير الداخلية ألا أن أبلغ هذا الخبر الى المشير عبد الحكيم عامر وسأله : هل يترك الأمور تجرى فى اعنتها ، ويترك بوليس الأداب يدبر الكمين ويقبض على الروائيين والبنات الصغار اللواتى فى عمر الزهور وينتمين الى ناد ارستقراطى معروف ؟ فطلب اليه المشير أن ينذر الروائيين بالكمين ، حتى يأخذا حذرهما ، وكانت حجة المشير فى ذلك أن اسمى الروائيين المعروفين مرتبط بالنظام ، وعلى الرغم من أن النظام غير مسئول عن السلوك الشخصى الخاص بالأفراد ، الا ان أصداء الحادث ستنعكس بلا شك على هيبة البلد ونظامها . وكان المشير يتمنى ان يقع أحد الروائيين فقط فى الكمين ، ولكن لما كان الأثنان يترددان معا ، فقد أصدر أمرا بالاغضاء عنهما .. ونجا أحدهما اكراما لعيون الآخر .

آخر لقطـــة !

لم تكن هذه الاهتمامات بالطبع فى ذهن جمال عبد الناصر عندما قرر أن تتعدد أجهزة الأمن السرية ، ولكن هذا هو ما أنتهى اليه الاغراق فى المنافسة بينها ، وما جعل الأسرار الشخصية حتى لأفراد جهاز الأمن انفسهم عرضه للتجسس من جانب الأجهزة المنافسة •

ومن هنا كان اعتماد عبد الناصر المتزايد على بريد المواطنين ، لكى يطمئن الى صدق ما يبلغه •• خاصـــة فيما يتعلق باتجاهات الرأى العام ، وموقف الجماهير من الأحداث السياسية ، وقد رأينا ، فى الفصل السابق ، كيف انشأ لهذا البريد ادارة خاصـــة ، وعهد بهـــا الى محمود الجيار لثقته الكاملة به •

وقد كان لابد من رسم هذه الصورة لصراع الأجهزة ، تفسيرا لما جاء فى الحلقة السابقة • أما الآن ••• فيمكن ان نواصل روايتنا لمزيد من الأسرار الشخصية ، والاكثر أهمية ، لجمال عبد الناصر •

ونختتم هذه السطور بحادث درامى أخير ••• من حوادث الصراع الذى كان بين المباحث والمخابرات •

حدث أن كان « صلاح » نجل عبد العظيم فهمى فى أوائل الستينات ملحقا ديبلوماسيا بالسفارة المصرية بجنيف ، وأنيط به سرا أن يتولى نقل تبرعات الجزائريين المقيمين بأوروبا وغيرهم من مشـجعى وممولى الثورة الجزائرية، الى مقر قيادة هيئة التحرير الجزائرية فى القاهرة • وقام فعلا بنقل ثمانية عشر مليونا من الدولارات على ثلاث دفعات ••• واذا بفتحى الديب الذى كان وكيلا للمخابرات يوقظ وزير الداخلية فى منتصف ذات ليلة ليقول له انه اكتشف أن هناك عشرين دولارا ناقصة من الدفعة الأخيرة التى نقلها أبنه صلاح ، وقدرها ستة ملايين دولار !

ولم يصدق عبد العظيم فهمى أذنيه ، وعاد يسأل وكيل المخابرات :

ـ سيادتك قلت عشرين ألف دولار ؟

فقال وكيل المخابرات :

ـ لا .. بل عشرين دولارا فقط !

فعاد عبد العظيم فهمى يسأله :

ـ هل عددت النقود جيدا ؟

قال وكيل المخابرات : نعم .

فعاد عبد العظيم فهمى يقول له : ومن أجل عشرين دولارا ضمن ستة ملايين دولار توقظنى من النوم ؟

قال وكيل المخابرات : المسألة مسألة مبدأ .

فنزل وزير الداخلية من بيته وذهب الى ادارة المخابرات ... أحصاء المبلغ بالاشتراك مع وكيل المخابرات .. واتضح انه ليس دولارات ناقصة ولا حاجة !

الفصل الرابع

* اتفق الأربعة على عزل عبد الناصر
* رسالة من عبد الناصر : ساقطع السنتكم !
* قرش من البغدادى مقابل اثنا عشر جنيها !

عاش جمال عبد الناصر حياته ـ منذ نجاح ثورة يوليو ـ أسير حلم مستحيل !

كان يقرأ أن الثورات تأكل أبناءها • فكان حلمه أن تتمرد ثورة ٢٣ على القانون ، فلا تأكل أحدا من الذين قاموا بها •• مهما نشب بينهم من خلاف •

ولكن اصراره على تحقيق هذا الحكم كلفه غاليا •

هكذا يقول لنا رجل عبد الناصر ، وظله ، وموضع سره ، وخرزته الزرقاء التي كان يتفاءل بها : محمود الجيار •

يقول الجيار :

وكان قد حدد فترة الانتقال بعد الثورة بثلاث سنوات، وأعلن أنه بعدها ستتمتع مصر بدستور ديمقراطي . ولكن الفترة امتدت عاما آخر (بعد ١٩٥٥) بسبب المعارك التي خاضتها البلاد .. خاصـــة ضد حلف بغداد الاســـتعماري .

وبدأ عبد الناصر يستعد لتزويد مصر بالدستور الموعود .

بدأ يقرأ كل ما يتعلق بالقضايا الدستورية في مصر والخارج . وكانت هذه من سماته المميزة منذ تولى الحكم : أن يقرأ بافراط .

وطلب من مكتبه أن يزوده بالنصوص الكاملة لمعظم دساتير العالم ، شرقا وغربا ، وعندما فرغ من الاطلاع عليها ، طلب أن تطبع نسخ منهـــا جميعا ، وتوزع على كافة الضباط الاحرار ، والوزراء ، حتى يمكنهم على أساسها المشاركة في وضع الدستور المصري الجديد ... أول دستور بعد ثورة يوليو .

لكن عبد الناصر كان رجلا عمليا أيضا .

ففي نفس الوقت كان يفكر في الطريقة التي سيمارس بها الضباط الاحرار رسالتهم في ظل الوضع الديمقراطي القادم .

ان السلطة ، بمقتضى الدستور ، ستصبح كلها لمجلس الأمة . ولن يعود الضباط يمارسون السلطة المطلقة التي تمتعوا بها منذ عام ١٩٥٢ .

ولكي تستمر الثورة يجب أن يكونوا قادرين على مواصلتها من داخل المجلس .. لا من مكاتبهم في القوات المسلحة .

ولهذا بدأ عبد الناصر عملية فريدة من نوعها : عملية اعداد بعض الضباط الثوار لدخول معترك الحياة السياسية المدنية .

وكانت طريقته بالغة البساطة .

اتصل بالضباط الذين يعرف أنهم أكثر ميلا للعمل السياسي ، وأقدر على النجاح فيه وطلب منهم أن يتركوا مواقعهم في الجهاز العســـكري

الحاكم .. ويخوضوا معترك الانتخابات التى ستجرى لأول مجلس للأمة ، ويمارسوا السلطة من مقاعده .

وكان بين الذين اختارهم لهذه التجربة الديمقراطية عبد اللطيف بغدادى . وكان أمله كبيرا فى أن تنجح التجربة على يديه .

ولكن .. تأتى الرياح أحيانا بما لا تشتهى السفن !

أول رفض للديمقراطية !

من البداية كان يبدو أن الذين تعودوا أن يحكموا بالسلطة المطلقة ، دون رقابة من أحد ، لن يقبلوا بسهولة أن يرضخوا لرقابة .

ولكن عبد الناصر كان يأمل ، أو يحلم ، بأن يتعودوا الأسلوب الجديد .

وكانت له قبل ذلك تجربة ، رواها الرئيس السادات فى كتاب « أسرار ثورة يوليو » .. عندما صوت مجلس الثورة مع فرض نظام ديكتاتورى . فقدم عبد الناصر استقالته وترك الاجتماع . وتداول المجلس فى غيابه ، وقرر النزول على رأيه ، وذهب يدعوه ان يعود ويحكم معهم بطريقة ديمقراطية .

لكن ذلك كان فى أيام الثورة الأولى ، أما الآن فقد تغير كثيرون من زملاء عبد الناصر .. بعد ان ذاقوا حلاوة السلطة المطلقة .

وجاء أول اختبار ، فى أول مجلس للأمة ، عندما وقع أول صدام بين المجلس وبين كمال الدين حسين .

كان كمال الدين حسين وزيرا للتعليم .. ووقع الصدام حول قضية السماح بالانتساب للجامعة . وأصدر المجلس قراره ضد رأى الوزير .

وكان لهذا الحادث ضجة ، لأنها كانت أول مرة منذ ٢٣ يوليو تفوز فيها الديمقراطية على عضو بمجلس الثورة .

كان عبد الناصر جادا فى اقامة نظام ديمقراطى فى مصر • وكان بطبيعته يستكشف قبل قرار، آراء مختلف المستويات التى تتعامل معه •

وكان للضجة سبب آخر، شخصى جدا، يتعلق بكمال الدين حسين نفسه فقد ساوره الشك فى أن النواب الذين أثاروا المناقشة يتزعمهم محمود القاضى، وكان هـذا النائب قد سـبق أن حارب والد كمـال حسين فى الانتخابات، وفاز عليه بأغلبية كبيرة •

وفى العالم كله تقع كثيرا أمثال هذه الحوادث .يترتب عليها حزازات تسوى بعد حين، أو تستمر الى آخر الدهر • ولكن المسألة فى مصر، وفى ذلك الوقت بالذات، كانت تختلف •• فكمال حسـين كان وقتهـا فوق المناقشة •• وكان غير مقبول ـ من وجهة نظره ـ ان يرضخ لأية سلطة، ولو كانت سلطة مجلس الأمة • فما بالك اذا كان الذى حرك هذه السلطة ضده اجل سبق أن تحداه شخصيا • وأسقط والده فى الانتخابات ؟

وليت هذا كان كل شىء •

ففى نفس الوقت كانت هناك قضية أخرى، أكثر تعقيدا تفرض نفسها على مجلس الأمة الوليد •• وتتحدى هذه المرة رئيس المجلس نفسـه : عبد اللطيف بغدادى !

تمثلت هذه القضية فى استجواب قدمه النائب « سيد جلال » حول مشروع مديرية التحرير •• والذى كان مسئولا عنه مجدى حسنين •

وقيل أيامها ان الذى دفع سيد جلال الى تقديم هذا الاستجواب كان رئيس المجلس، عبد اللطيف بغدادى •• وقد لا يكون هذا صحيحا •• ولكن الرأى العام فى المجلس كان يشـعر ان بغدادى عاطف على هـذا الاستجواب •

لماذا ؟

كان مجدى حسنين واحدا من ضباط الصف الثانى فى تنظيم الضباط

الأحرار ، ومعه اثنان آخران من ضباط الصف الثاني ممن تعاملوا مع رجال مجلس الثورة بشيء من الندية والزمالة والحرية ، الشيء الذى أصبح ثقيلا عند بعض اعضاء مجلس الثورة ، مما أثار كثيرا من النقد بين الضباط الاحرار من رجال الصف الثاني . وكان مع مجدى حسنين زملاء الطحاوى وطعيمة ، وصاروا يوجهون النقد للبغدادى علانية وبين النواب .

وعندما طرحت المناقشة فى سؤال عن ادارة مديرية التحرير وتكاليفها كان مطلوبا ادانة مجدى حسنين لسوء ادارته ، ولسبب آخر هو تعيينه لثلاثة أعضاء بالمجلس مستشارين بمديرية التحرير من بينهم محمود القاضى أيضا فتلاقت وجهات نظر البغدادى مع كمال حسين وكلاهما لديه الرغبة فى التخلص من الأربعة . وأشاعوا أن عبد الناصر يؤيد هذا الاتجاه .

وكنت ممن اختارهم عبد الناصر للعمل السياسى . وجاء نواب البحيرة يتحققون من صدق هذه الاشاعة فنفيت أن يكون عبد الناصر يوافق على التدخل فى عمل المجلس .

وفعلا ، رويت لعبد الناصر ما رأيت . فأيدنى فيما قلت . وتأكدت مرة أخرى من أن ما يعنيه هو نجاح التجربة الديمقراطية التى بدأها .. ولو كان ثمن ذلك صدور قرارات على غير هواه ، وعلى غير اقتناعه .

وعندما جاء موعد التصويت على الاستجواب .. كانت النتيجة مفاجأة : فقد فاز مجدى حسنين بتأييد ساحق فى المجلس ، وفشل الاستجواب فشلا ذريعا .

ومن هنا .. بدأت المتاعب !

زكريا ... الرفض الثالث

كانت هذه أول تجربة عملية للحكم الديمقراطى فى مصر بعد الثورة .. وعليها كان يتوقف مستقبل التجربة كلها .

ولو أن كلا من كمال حسين وعبد اللطيف بغدادى قبلا الهزيمة بروح ديمقراطية لما تعثرت التجربة .

ولهذا ، ما كاد المجلس يعقد جلسته التالية حتى قلبا المائدة عليه •• وعلى الديمقراطية !

قرأ عبد اللطيف بغدادى ، باعتباره رئيس المجلس ، رسالة تلقاها من كمال حسين •• يعلن فيها استقالته ••• ثم أعلن ان لديه هو أيضا رسالة يريد أن يقرأها على المجلس وطلب أنور السادات ـ الذى كان وكيلا للمجلس وقتها ـ ان يتولى رئاسة الجلسة •• حتى يتمكن هو من تلاوة رسالته •

وأحس النواب الذين كانوا ضباطا ، والذين تركوا الجيش لممارسة الحياة السياسية بأن بغدادى سيعلن استقالته أيضا • فبدأوا يثيرون ضجيجا ، ويعرقلون محاولة بغدادى لقراءة الرسالة التى أعلن عنها •

وأثار هذا غضب عبد اللطيف بغدادى ، فترك قاعة المجلس وانصرف • وهنا نترك للجيار أن يروى ما حدث :

«أسرعت أجرى وراء بغدادى وهو متجه الى مكتبه فى مجلس الأمة •

ودخلت وراءه ففوجئت بأن زكريا محيى الدين هناك •• وفوجئت به يسألنى : رايح فين ؟

قالت له : رايح أكلم رئيس المجلس •

وبدأت محاورة لا أنساها بينى وبين عبد اللطيف بغدادى •

قالت له :

ـ لا يمكن أن ينتهى الأمر برجال الثورة الى شىء كهذا • ولا أتصور ان تكون هذه نتيجة أول تجربة ديمقراطية •

قال :

ـ ولا يمكن ان ينتهى الأمر بتحريض مجدى والطحاوى وطميمة للنيل منى ، والطعن فى هذا هنا وهناك •

واذا بزكريا محيى الدين يقول له :

ـ وهو أنت بس ؟ ما أنا كمان بيهاجمونى •

كان واضحا أنه ، بدلا من أن يهدئه ، يتعمد اثارته ••

وواصلت حديثى الى بغدادى أقول له :

ـ أتحدى أن يكون عبد الناصر قد حرض مجدى والطحاوى وطعيمة عليك •• بل اتحدى من يقول أن عبد الناصر لم يأمرهم بالكف عن هذا الهجوم •

ولم أكن أكذب وأنا أقول ذلك •

فقد سبق فى أحدى جلسات مجلس الأمة أن كان مقعدى أمام مجدى والطحاوى وطعيمة • وسمعتهم يهاجمون بغدادى رئيس المجلس ، طول الوقت • ساءنى ذلك •• خاصـــة وأننا فى أول تجربة نعمل فيها خارج تنظيم الضباط الاحرار ونمارس فيها العمل السياسى فى أطار الدستور •• ومن مصلحتنا جميعا ، بل من مصلحة مصر كلها ، أن تنجح الديمقراطية •

ويومها رويت لعبد الناصر ما حدث ، كعادتى •• فقد كنت لا أخفى عنه شيئا •

واســـتاء عبد الناصر أيضا ، وكان موجودا فى ذلك الوقت صلاح دسوقى •• فقال عبد الناصر لى :

أذهب مع صلاح الآن •• وقابلهم •• وقل لهم اننى آمرهم بأن يكفوا ألسنتهم عن بغدادى •• والا فآنى سأقطعها !

ولم يكن فى هذا التعبير أساءة كما قد يبدو للوهلة الأولى • فعبد الناصر كان مدرسا فى كلية أركان الحرب ، ويملك أن يعنف هذا الجيل من الشبان الذين يعتبرهم أخوته الأصغر ، ويعلم أنهم سيحترمون توجيهه •

تذكرت هذه القصــة وأنا أحاول أن اهدىء غضــب عبد اللطيف بغدادى • وقلت له :

ولكن كلاهما كان قد اعتداد ممارسة السلطة اله أو نصف اله •

ــ ليس صحيحا أن عبد الناصر هو الذى يحرضهم ضدك وفى قاعة المجلس الآن صلاح دسوقى ، وهو صديقك ومن انصارك • اطلبه وأسأله عن الرسالة الشفوية التى كلف معى بابلاغها الى الذين يهاجمونك •

ورويت له ملخص الرسالة • فبدأ يهدأ •

ثم التفت الى زكريا محيى الدين قائلا :

ــ ما تيجى نتغدى عندى سوا •

قال زكريا :

ــ لا •• أنا تعبان •• رايح أنام •

فانتهزت الفرصة وقلت لبغدادى :

ــ أنا أجى معاك •

ولم أكن اتوقع وقتها ما حدث بعد ذلك ؟

ركبت مع بغدادى سيارته •• وكان معه سعد البغدادى شقيقه •• فذهبنا نوصله الى بيته أولا •• وبعد أن أوصلناه عدنا فى اتجاه بيت عبد اللطيف •

وفجأة خطر فى ذهنى خاطر •

قلت له :

ــ ان عبد الناصر يتابع دائما جلسات مجلس الأمة من خلال خط تليفونى بمكتبه بالمنزل ولا أريد أن ينام وهو متألم •ما حدث •• فما رأيك لو مررت عليه الآن •••• وغسلت ما فى نفسه ؟

فتردد بغدادى بعض الوقت ، ولكنى ألححت عليه الى أن وافق •• واتجهت السيارة بنا الى بيت عبد الناصر •

وفى الطريق خطر لى خاطر آخر :

وضعت يدى فى جيبى ، فوجدت ان كل ما معى ١٢ جنيها فقلت لعبد اللطيف بغدادى :

ـ ما رأيك فى رهان بمبلغ ١٢ جنيها من جانبى ، وقرش واحد من جانبك .

ـ على ماذا ؟

ـ على أننا سنجد زكريا محيى الدين الآن عند عبد الناصر .

قال البغدادى :

ـ يا راجل حرام عليك .. زكريا راح بتهم علشان ينام ..

قلت :

ـ فى هذه الحالة تكسب ١٢ جنيها .. ألا يسرك أن تكسب هذا المبلغ ؟

وضحك بغدادى لأول مرة منذ غادرنا مجلس الأمة وقبل الرهان .

ووصلنا الى بيت عبد الناصر .

واذا بنا نجد سيارة زكريا بالفعل فى فناء البيت !

واحتقن وجه عبد اللطيف بغدادى .. وصدر عنه تعليق ينبىء عن خيبة أمل فادحة .

وتركت بغدادى فى حجرة الانتظـــار . ودخلت أخبر عبد الناصر بقدومه .... فوجدت معه زكريا .

وأمر عبد الناصر بأن يدخل فورا عبد اللطيف بغدادى ، فخرجت وعدت به .... وتركت الثلاثة معا .

ولكن هذه لم تكن نهاية القصة .

الاتفاق الرباعي على عزل عبد الناصر !

كان محمود الجيار يشعر أن فى الأمر شيئا لم يتضح بعد .

وكان عبد الناصر قد لمح . بذكائه . ان لديه شيئا يريد ان يقوله . فطلب اليه ان ينتظر فى البيت . ولا ينصرف .

وانتظر الجيار الى أن خرج زكريا وعبد اللطيف . ثم استدعاه عبد الناصر وسأله :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

فروى الجيار له ما حدث عندما رأى عبد اللطيف سيارة زكريا ، وكيف فوجىء .... وعلق تعليقا جارحا . وأضاف الجيار :

ـ ولو تركتنى وقتا كافيا مع بغدادى لعرفت منه السر .

ولكن عندى أحساسا بأنه كان بينهما تدبير ما ، ولو تركت لى الفرصة لعرفت هذا التدبير .

فقال عبد الناصر :

ـ لا تدع الشكوك تعبث بك ، ومع ذلك ، لا مانع من أن تحاول ، اذهب الى بغدادى غدا ، وخذ معك « صلاح دسوقى » وأعرف منه القصة كلها .

ونترك هنا محمود الجيار يواصل الرواية :

« فى اليوم التالى ذهبت فعلا ، ومعى صلاح دسوقى ، وقابلنا بغدادى فى نادى هيلوبوليس . حيث كان يلعب رياضته المفضلة وقتها ، الاسكواش راكيت ... وانتظرنا الى ان فرغ من اللعب . وجاء يجلس معنا . وبادرته قائلا : فين القرش صاغ ؟

قال : قرش أيه ؟

قلت : قرش الرهان . هل نسيت . لقد جئت خصيصا لأطالبك به !

فضحك بغدادى طويلا •

ثم قال لى :

ـ لا أدرى كيف استدرجتنى الى الكلام ••

ولكنه على عكس ما يوحى رده ، كان مستعد للكلام •

وكان يعرف اننى لابد سأبلغ عبد الناصر ، ولكنه برغم ذلك لم يخف شيئا •

قال بايجاز أنه اجتمع مع زكريا محيى الدين ، وكمال حسين ، وزميل رابع ، وتناقشوا معا فى أن عبد الناصر لم يعد يستشيرهم أو يشركهم فى شىء بعد وجود دستور مجلس نيابى منتخب •

واتفقوا على عزله !

ومن هنا بدأت حكاية مجلس الأمة • واستقالة كمال حسين وبغدادى •

فقلت لبغدادى :

ـ أنت تعلم طبعا اننى لابد أن أبلغ الرئيس بهذا الكلام • فلم لا تذهب انت اليه • وتبلغه به من جانبك ؟

ووافق بغدادى ، نهضت على الفور واتصلت بمحمد أحمد وطلبت منه ابلاغ عبد الناصر وتم اللقاء بينهما فعلا • فى نفس اليوم •

وفوجىء عبد الناصر بما سمع من بغدادى • وأرسل يستدعى الثلاثة الآخرين : كمال حسين • وزكريا محيى الدين والعضو الآخر من مجلس الثورة •

وأجرى مع الجميع تحقيقا تأكد فيه صدق ما قال بغدادى • فأمرهم بتقديم استقالتهم •

المساومـــة !

ولكن .. هل قدموها فعلا ؟ وهل قبلها ؟

ولو فعل ذلك لتغير وجه التاريخ الديمقراطى لثورة يوليو ، ولتأكدت سلطة النواب على سلطة انصاف الآلهة من الضباط الحاكمين .

ولكن ...

كانت تجرى وقتها مفاوضات الوحدة مع سوريا . فأضمر – بدلا من اقالتهم – ان يعين كلا منهم « وزيرا مركزيا » فى حكومة الدولة الموحدة الجديدة ، ويضع تحت كل منهم وزيرين تنفيذيين ، يتمتعان بالسلطة الفعلية .

وبهذا لا تكون الثورة قد أكلت هؤلاء الرجال الذين حملوا رؤوسهم على اكفهم معه . وتكون فى نفس الوقت قد تحررت من ولعهم بالسلطة المطلقة . وخطرهم على مستقبلها الديمقراطى .

ولكى يحمى التجربة الديمقراطية ، عمل ان يتولى رئاسة المجلس النيابى بعد الوحدة أنور السادات ، بدلا من عبد اللطيف البغدادى . لانه كان يعرف ان السادات لن يعرقل التجربة ، وانما سيتحمس لها ويحميها .

انتهى كلام محمود الجيار .

وواضح أنه قد بدأت المؤامرة على الحياة الدستورية منذ البدايات الأولى لتجربتها الأولى .

واضح أيضا أن أول صدام لها ، وأول رفض لها ، كان أبطاله نفس الذين يدعون اليـــوم أنهم اختلفوا مع عبد النـاصر بســبب ديكتاتوريته وديمقراطيتهم .

الفصل الخامس

* هل امر كمال حسين بقصف اذاعة حلب !
* عبد الناصر في حرب الانفصال السورى
* من الذى ذهب الى السينما مساء يوم الانقلاب

لم يكن ذلك الصباح كأى صباح سبق فى حياة عبد الناصر !

ولم يكن كذلك فى حياة محمود الجيار أيضا • ويكفى أنه كان أول صباح يستيقظ فيه عبد الناصر قبله !

كان التاريخ : ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ •

وكان يوم جمعه • والجيار كعادته كل أسبوع فى قريته « الاخماس » بمحافظة البحيرة • وعندما استيقظ وجد ساعته واقفة • ففتح الراديو ليعرف الساعة •• واذا به يسمع جمال عبد الناصر !

ونترك الجيار يروى القصة •

كانت مفاجأة بلا جدال أن اسمع عبد الناصر يذيع خطابا فى الساعة السابعة صباحا !

وتصورت فى البداية أنه خطاب قديم ، يذيعه برنامج «أخى المواطن» • ولكنى تذكرت أن هذا البرنامج يذاع بعد الظهر •

ثم أن الكلام كان جديدا ، ويتعلق بحادث يبدوا أنه جديد • ومضى بعض الوقت قبل ان اكتشف طبيعة هذا الحادث •

لقد وقع انقلاب على الوحدة فى سوريا !

وقفزت من فراشى ، الى سـيارتى ، الى القـاهرة ، وأنا بالجلابية والشبشب • ومضيت أتابع من راديو السيارة ما تذيع القاهرة ، وما تذيع بيانات دمشق •

فقبل شهرين كانت تتكاثر التقارير التى تنبىء بوجود تدبير ما ضد الوحدة • وكان مفهوما ان هذا التدبير يجرى داخل الجيش • وفى تلك الأيام كان يملك السلطة السياسية فى سوريا من يملك فرض أمر واقع عسكرى فى جيشها • ولهذا حرص عبد الناصر على ان يضم الى وزارة الوحدة أكثر الضباط السوريين نشاطا سياسيا أو حزبيا فى الجيش ، ليكونوا مسئولين أمام الرأى العام ، ويضمن استقرار الوحدة ذاتها •

ومع ذلك •• هاوو الانقلاب يتم على الوحدة • كيف ؟ ومن اين جاءت الضربة ؟

حاصرتنى هـذا الاسـئلة طوال الطريق الى القاهرة • وهو طريق يستغرق ساعة وربعا ، ولكنى قطعته يومها فى ٤٠ دقيقة • وأتجهت الى منزلى ، حيث ابدلت ثيابى فى لحظات ، ثم سـالت عن عبد الناصر فوجدته فى القيادة ، فأسرعت الى هناك •

كانت دمشق وقتها تذيع البيان رقم ٩ ، الذى يقول انه بعد قليل سـيذيع المشـير عبد الحكيم عامر بيانا يعلن فيه عودة الهدوء واستقرار الأوضاع •

وما كدت ادخل على عبد الناصر ، وهو يستمع الى البيان ، حتى أمرنى ان أطلب له المشير فورا على التليفون اللاسلكى ، ولسبب ما كان قادة الانقلاب لم يتنبهوا الى هذا التليفون ، ولم يقطعوا ارساله •

وتم الاتصال فورا بين عبد الناصر في القاهرة ، والمشير عامر فى مبنى القيادة فى دمشق •

وبادره عبد الناصر قائلا : ما هذا الذى سمعت يا عبد الحكيم ؟ هل صحيح أنك ستذيع بيانا بعودة الهدوء ؟

وأنصت عبد الناصر الى رد المشير ثم قال :

ـ اوعى تعمل كده !

ولم أسمع بالطبع ماذا قال المشير • ولكن عبد الناصر عاد يقول :

ـ اذا كانوا جادين حقا •• أطلب منهم أن يعودوا أولا الى ثكناتهم • والا • فلن تعود تملك معهم شيئا • ان اى بيان ستصدره الآن سيخدمهم لا تدعهم يكررون معك ما فعلناه نحن مع الملك فاروق ! (كان ضباط يوليو قد خدعوا الملك فى أول حركتهم بمطالب معتدلة ، جعلته يسلم بها ، قبل ان يفصحوا عن هدفهم الحقيقى ويأمروه بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد) •

وأضاف عبد الناصر ان تنتهى المكالمة :

ـ لا تخف ، ولا تساوم • ونحن الآن نحرك قواتنا •

وانصرف عبد الناصر بعد ذلك يتمم ما كان قد شرع فيه •

كان يعد أمر العمليات للقوات التى قرر تحريكها الى سوريا ، لحماية الدولة الموحدة من التمرد الانفصالى الذى بدأ فيها •

وكانت العملية كما خطط لها تتضمن تحرك الجيش والأسطول .

وجاءت الانباء أثنـــاء ذلك بأن « حلب » ما تزال صـــامدة لمؤامرة الانفصال . وما دامت حلب صامدة ، فاللاذقية لابد ان تكون صامدة أيضا . فالمدينتان تتبعان منطقة عسكرية واحدة . واللاذقية هى الميناء الذى سيستقبل قواتنا المحمولة بالبحر أو بالجو .

وعندئذ قلت لعبد الناصر :

ـ ان قوات اللاذقية لا تعرف طبعا اننا سننجدها بقوات من عندنا . وقد تستسلم فجأة تحت أية ظروف . ولهذا يجب أن نبعث اليها فورا بمن يبلغها بتحركنا .. حتى تواصل الصمود .

واقترحنا أن اذهب أنا لابلاغ هذه الرسالة .

واذا بعبد الناصر يقول لى :

ـ لا .. سأبعث اليهم بعبد المحسن أبو النور ، (وذلك لانه كان يعمل مساعدا لقائد الجيش السورى ، وأبعد من هناك بعد محاولات بعض ضباط الجيش السورى تشويه موقفه) أما أنت ، فانتظر حتى تذهب معى !

وذهلت .

لم أكن أعرف أنه ينوى الذهاب الى عرين الانقلاب ولكن هذا كان قراره .

كان خطته ان تهبط قواتنا هناك . وبعدها مباشرة يهبط هو . ويخوض المعركه مستندا الى الشعب السورى !

وتم الاتصال فورا بعبد المحسن أبو النور .

وكانت الأوامر تقضى بأن يصحب كتيبة من قوات الصاعقة ويهبط بها فى اللاذقية وينضم الى القوات الصامدة هناك •

وأسرعت أبلغ الأوامر الى عبد المحسن • وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا • وذكرته بأنه يجب أن يصل قبل آخر ضوء •• لأن مطار اللاذقية لا يصلح لأى هبوط بعد غروب الشمس •

ومضى عبد المحسن يعد نفسه • والقوات التى سيهبط بها ، بينما قرر عبد الناصر أن يعود الى البيت • وتم تحويل اللاسلكى الى مكتبه هناك •

وفى هذه الساعات كان كمال حسين هو الوحيد الذى جاء وانضم الى عبد الناصر ، ومضى يتابع معه تطورات الموقف •

واذا بمفاجأة تقع ، وتقلب الموقف رأسا على عقب !

كانت المفاجأة هى عودة عبد المحسن أبو النور ، دون ان يهبط فى مطار اللاذقية !

كيف حدث هذا ؟

قال ببساطة أنه وصل بعد آخر ضوء ، ولم يعد ممكنا ان يهبط •

والطائرات الأخرى التى تحمل قوات الصاعقة ؟

قال ان واحدة منها نزل جنودها بالبارشوت ، ولا يعرف شيئا عن الباقيات !

وبعد قليل ، فوجئت بعبد الناصر يستدعينى ويقول لى :

ـ عبد الحكيم قادم • قد يصل فى السابعة أو بعدها بقليل • اذهب مع كمال حسين وانتظراه فى المطار •

وفى المطار كان المشهد مثيرا •

نزل عبد الحكيم فى حالة واضحة من العصبية والذهول ، وأخرج من جيبه مسدسا واعطاه لى .

وأراد كمال حسين أن يأخذ منى المسدس ، فقال له المشير :

ـ تأخذه تعمل بيه أيه ؟ ده مزرجن !

كانت احدى الرصاصات محشوة فى الماسورة ، لم تنطلق ولم أعرف حتى الآن متى حاول المشير اطلاقها ، ولا على من كان يريد اطلاقها .

ومال المشير على اذنى قائلا بصوت منخفض :

ـ أنا معايا اكرم ديرى . خده معاك وشوف له هدوم يلبسها .

كان اكرم ديرى من وزراء الوحدة السوريين المتحمسين .

وكانت قد وقعت مشادة فى قيادة دمشق بينه وبين مأمور الكزبرى زعيم الانفصال . فأطلق عليه الكزبرى « دفعة رشاش » لم تصبه ، ولكنها احرقت بنطلونه . فكان فى أمس الحاجة الى ثياب . وطبعا حصلت له على ثياب فى الحال .

وعدنا جميعا الى بيت عبد الناصر . لنجد فى انتظارنا مفاجأة أخرى .

كانت المفاجأة هذه المرة فى الراديو .

فقد بدأت اذاعة حلب تغير اتجاهها الوحدوى ، وتهاجم عبد الناصر كاذاعة دمشق تماما .

ولا أذكر انى سمعت فى حياتى اقذع من الشتائم التى سمعتها من تلك الاذاعة وقتها . ولمن ؟ لجمال عبد الناصر الذى خرج الشعب السورى يستقبله بجنون أسطورى قبل الوحدة ، واختاره رئيسا بالاجماع .

كان شيئا يجعل الدم يغلى فى العروق •

واستمرت اذاعة حلب تواصل شتائمها • فاذا بكمال حسين يقول وعبد الحكيم عامر •• الذى كان يبدو وقتها نصف غائب عن الدنيا وما فيها •

وفجأة نهض عبد الناصر ، وترك الحجرة ، وانصرف •

واستمرت اذاعة حلب تواصل شتائمها • اذا بكمال حسين يقول للمشير :

ـ اسمع • اتصل حالا بصدقى محمود (قائد الطيران) ، واطلب منه أن يرسل طائرة تقصف هذه الاذاعة بالقنابل !

قال المشير :

ـ أطلبه أنت •• وقل له •

وفزعت لهذه الفكرة •

ولكن شيئا آخر افزعنى أكثر • فمن الخارج سمعت صوت عبد الناصر يسعل سعالا متواصلا ، ومخيفا !

كان عبد الناصر قد ترك الحجرة الى الحمام • فأسرعت اليه • ولكنى طبعا لم استطع أن افتح عليه الباب •

ووقفت أنصت الى سعاله وأنا أدعو الله ألا يحدث شىء • ثم فجأة توقف السعال وتوقف أى صوت آخر !

وعندئذ لم استطع الا أن أغامر وافتح الباب •

ووجدته واقفا فى الممر الذى وراء الباب ، صامتا ، يفكر بحزن •• ويبدو أنه كبر عدة أعوام •

واسرعت أقول له :

ـ لم كل هذا ؟ مادمت موجودا ، وبصحتك ، فستعوض كل خسارة •• وسنواصل طريقنا ، بكفاحنا •

فاذا به ينظر لى طويلا ، وفى عينيه حزن عميق ، ثم يقول :

ـ يعلم الله اننى لا أفكر فى شىء من هذا • انما أفكر فى « الأولاد بتوع الصاعقة » ••• ماذا سيفعلون الآن وقد تغير الموقف فى حلب واللاذقية ؟ لقد ذهبوا للهبوط فى قاعدة صديقة • ماذا سيفعلون وقد أصبحت قاعدة معادية ؟

وسكت قليلا ثم قال :

ـ اسمع • اتصل فورا بصدقى محمود • قل له ان يتصل بأى طائرة تكون باقية فوق اللاذقية •• ويأمرها بابلاغ الأولاد الذين هبطوا ان يسلموا أنفسهم فورا لقيادة اللاذقية ، دون اطلاق رصاصة واحدة • وأن تعود باقى الطائرات برجالها •

عندئذ تذكرت اقتراح كمال حسين الذى سمعته منذ قليل •

فقلت لعبد الناصر :

ـ اسرع اذن الى المكتب • فقد تركت كمال حسين يستعد لاصدار الأمر لقصف اذاعة حلب • واعتقد ان •••

ولم يدعنى عبد الناصر أكمل كلماتى ، وانما اسرع يجرى الى المكتب ليمنع الكارثة •

ودخل المكتب وهو يصيح بكمال حسين :

ـ ما هذا الذى فعلت ؟

فسأله كمال حسين بعصبية :

ـ هل أنت موافق على ان تستمر هذه الوقاحة والشتائم من تلك المحطة ؟

فقال عبد الناصر :

ـ وهل ترى أنت أن تقطع الى الابد ما بيننا وبين الشعب السورى ؟ ان اذاعة حلب تقع وسط المساكن . هل تريد دما بيننا وبين السوريين ؟

ولم يكن كمال حسين بالطبع يريد دما . ولكن ما كانت تذيعه محطة حلب كان يستفز الحجر .

وقد أثبت عبد الناصر يومها أنه أكثر صلابة من الجرانيت . فقد تحمل ما سمع من شتائم موجهة اليه شخصيا ، ولم يفقد وضوح الرؤية . وظل ما يشغله هو الابقاء على الأخوة من شعب سوريا ، والمحافظة على أرواح « الأولاد بتوع الصاعقة » .

أما باقى القوات ، فقد صدرت الأوامر اليها بالعودة من وسط البحر . ولم تكن بالطبع قد وصلت بعد .

ولكن هذه لم تكن نهاية القصة ، ولا آخر مفاجآتها .

ففى الصباح التالى ، وكان الانفصال قد تم وانتهى الأمر ، حملت تقارير الصباح الى عبد الناصر مفاجأة جديدة .

كان بينها تقرير يقول أنه فى الليلة السابقة ، شوهد ثلاثة من اعضاء مجلس الثورة فى السينما ، وان كلا من الثلاثة كان حريصا على ان يراه المتفرجون !

فعل الثلاثة هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه عبد الناصر مشغولا بمصير قوات الصاعقة فى اللاذقية .

وفعلوه بعد ١٢ ساعة من اذاعة انباء الانقلاب فى دمشق • ولم يذهب أحد منهم طول هذا اليوم الى جمال عبد الناصر • ولكنهم فى مسائه ذهبوا الى السينما •

وكان هذا اسوأ نبأ تلقاه عبد الناصر منذ نبأ الانقلاب بل لعله كان أكثر سوءا من نبأ الانقلاب •

فهؤلاء رفاقه الذين حملوا رؤوسهم على أكفهم معه ليلة ٢٣ يوليو • وهذه كارثة وطنية قومية كان واجبهم أن يتصدوا لها معه ، وان يكونوا الى جواره • ولكنهم تركوه يواجهها وحده • ثم لم يكتفوا بذلك •• وانما ذهبوا الى دور السينما يظهرون أنفسهم أمام الناس بمظهر الذى لا شأن له بشىء •

ولقد كان حادث الانقلاب شهادة فشل واضح للمشير عامر •

فأولا : كانت محاولة الانقلاب متوقعة ، كما سبق أن ذكرت • وكان مفروضا وهو فى دمشق أن يمسك ببعض خيوطها •

وثانيا : كان لكل من وزراء الوحدة الضباط انصار فى الجيش السورى • وكان عامر يستطيع بمجرد ان تحرك الانقلاب ان يرسل كلا من هؤلاء الضباط الى وحدته ، ليقود قواته ضد الانقلابيين • ولكنه بدلا من هذا ذهب مقر القيادة ، وأصبح رهينة داخله !

نفس الخطأ الذى ارتكبه قادة فاروق عندما علموا بتحرك ٢٢ يوليو • فقد ذهب حسين فريد وأركان حربه بقدميهما الى مقر القيادة ، حيث وقعا فى قبضة الثوار •

وهذا شىء لا يمكن ان ينساه عامر •• لأنه شخصيا كان هو الذى تسلق سور القيادة ، واسكت المدفع الذى كان يدافع عنها ، حتى يسهل على قوات يوسف صديق أن تقتحمها •

ومع ذلك نسى عامر التجربة • وذهب بقدميه أيضا حيث أصبح فى قبضة الانقلاب !

ومع هذا فقد كان المفروض ان يقف معه رفاقه فى ساعة شدته •• لا أن يظهروا فى السينما كما لو كانوا يقولون : لسنا مسئولين عن شىء !

لماذا ؟

لأنه كان بينهم وبين المشـير دائما ود مفقود ، منذ أول أيام الثورة •

وتلك قصة أخرى ، وسر آخر من أغرب اسرار الثورة المصرية •• ومن أغرب الاسرار الشخصية لجمال عبد الناصر ورفاقه !

تعليق : نفى نجل البطل القائمقـام يوسف صديق رواية السيد الجيـار عن اقتحام القيادة ليـلة الثورة •

الفصل السادس

* عبد الناصر فى قبضة مراكز القوة
* تدابير الحصار حول عبد الناصر كادت تطيح بمن ؟
* المحادثات التليفونية المسجلة بين روسيا ومصر •

مثل ابطال المآسى الاغريقية ، كان قدر عبد الناصر أن يفلت من قبضة مركز قوة ، ليقع فى قبضة مركز آخرا !

كانت التجربة الأولى ، التى تمثلت في اتفاق الأربعة على عزله •• هينة نسبيا • فقد أنتهز عبد الناصر فرصة الوحدة مع سوريا وأزاح الأربعة الى « مواقع شرف » لا تتمتع بسلطة تنفيذية فعالة • وتم اجهاض مركزا القوة الأول •

أما التجربة الثانية فكان بطلها المشير الراحل عبد الحكيم عامر • وكانت أشق • وأنتهت بكارثة يوليو ١٩٦٧ ، وما تلاها من احداث ومحاكمات أدت الى تصفية هذا المركز في النهاية ، ولكن بثمن أفدح •

ثم ظهر المركز الثالث بعده مباشرة • وكان واضحا أنه استفاد من التجارب السابقة ، كما استفاد من ضعف صحة عبد الناصر ، ونجح فى احكام الحصار حوله الى حد مخيف • ولم ينقذ عبد الناصر منه هذه المرة الا الموت •• تماما كابطال المآسى الاغريقية !

ولكن عبد الناصر ، قبل وفاته ، كان يدبر للنجاة من قبضة هذا المركز الأخير •

وكانت لديه خطة لاعادة بناء الدولة وتحريرها منه ، أودعها خزانته الخاصة التى سرقت بعد وفاته مباشرة (والتى سنروى أسرار فتحها وسرقتها فى فصل قادم) •

ولو أسعف العمر جمال عبد الناصر ، لما احتاج السادات أن يخوض معركة ١٥ مايو مع مركز القوة هذا •• فالسادات فى ذلك اليوم لم ينقلب على عبد الناصر ، وانما انجز مالم يتح لعبد الناصر أن ينجزه •• وان اختلف بالطبع الأسلوب ، لاختلاف الظروف •

ويرسم محمود الجيار ، فى السطور التالية ، صورة للظروف التى بدأ فيها عبد الناصر يخطط للخلاص من مركز القوة الأخير هذا • وكيف بدأ هذا المركز ، على اختلاف فروعه المتنافسة فيما بينها ، يدافع عن نفسه •• ويضرب كل من يحدث ثغرة فى حلقة الحصار التى يحيط بها عبد الناصر •

وطبيعى ان يكون الجيار نفسه أحد هذه الثغرات المطلوب ضربها • فهو عين عبد الناصر على نبض الرأى العام ، وعلى حقائق ما يجرى فى البلاد من وراء ظهره • وهو ليس ضالعا مع أحد من اقطاب مراكز القوة • وعبد الناصر لا يشك لحظة فى ولائه له •

وسنرى كيف نجحت هذه المراكز مرتين فى تدبير فخ للاطاحة به ، وكادت تنجح •• لو لم ينقذه فى المرتين أنور السادات !

استقالاتكم !

بدأ عبد الناصر الخطوة الأولى نحو تصفية مراكز القوة • التى صفاها السادات بعد ذلك ، بمجرد عودته من رحلة علاجه الأخير فى تسخالطوبو بالاتحاد السوفيتى ••• فى يوليو ١٩٦٩ •

قال فى أول اجتماع لمجلس الوزراء بعد عودته :

ـ فى الأسبوع القادم ، أرجو أن يأتى كل واحد منكم وفى جيبه استقالته •• فنحن مقبلون على مرحلة هامة • ولن يقتصر التغيير على مجرد دخول وزراء وخروج وزراء •• وأنما المسألة « بصراحة » ستكون مرحلة « اعادة تنظيم بيت كاملة » • وأرجو ألا يصل كلامى هذا الى بيتى قبل وصولى اليه !

قالها وأنتصب واقفا ومتجها نحو باب قاعة اجتماع مجلس الوزراء فى خطوات سريعة ، بدأ معها أن آلامه من جلطة الساق قد خفت الى حد ما • وكان قد عاد لتوه يوم ١٧ يوليو ١٩٦٩ بعد رحلة علاجه الأخيرة الى « تسخالطوبو » فى الاتحاد السوفيتى حيث كان قد وضعه الاخصائيون السوفييت تحت اشراف طبى قاس ، ربما كان أسوأ ما فيه ـ بالنسبة لعبد الناصر ـ أنهم ألزموه بأن يقلل من كميات الجبنة البيضاء التى كان لا يوجد عنده طعام ألذ منها فى الدنيا ، وبخاصة اذا كانت مغمسة بالخبز الناشف •

وكان طبيعيا ان تثير كلمات عبد الناصر القلق ، لا بين الوزراء العاديين فقط ، ولكن بوجه خاص بين أعوانه القابضين على زمام السلطات الحقيقة فى البلاد •

وكانت هناك خلفيات لهذا القلق •

آلام النفس :

« كانت الحالة النفسية للزعيم الراحل في أثناء وجوده في (تسخالطوبو) سيئة جدا .. لا لمجرد ان المرض كان قد اشـتد عليه ، ولا لأن الاطباء السوفييت قالوا له بصريح العبارة ان عليه ان يختار بين الصحة وبين المنهج الشاق الذي يختطه في العمل .. ولكن لسببين :

أولا : ان الصراع الداخلي على السلطة بين كبار معاونيه كان ينغص عليه عيشه ، وبخاصة ان هذا الصراع كان قد وصل الى حد حجب المعلومات الصحيحة عما يجري في البلد عن عبد الناصر شخصيا .

وثانيا : كان مما يرهق بال عبد الناصر ان مسلك أصدقائه وزملائه وكبار معاونيه (باستثناء الرئيس أنور السادات) في تلك الفترة انقسـم حياله الى فريقين : ففريق كان يتصل يوميا - عبر خط التليفون المفتوح ٢٤ ساعة كل يوم بين تسخالطوبو والقاهرة - لا ليسألوا عن صحته ، ولكن ليدس أفراده بعضهم البعض . وبعبارة أخرى فقد نقل هذا الفريق كل صداع مشاكل القاهرة والخلافات التافهة بين ركاب زورق واحد ، الى المكان الذي كان مفروضا ان يستريح فيه عبد الناصر من وجع الدماغ .. وفريق آخر لم يسأل اطلاقا عن صحة عبد الناصر ، ولا حاول ان يبذل مجهودا لاظهار قلقه على صحة « الصديق » عبد الناصر وليس « الرئيس » عبد الناصر .. ومن هؤلاء اعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى ، الذين كان موقفهم يحز في نفسه أكثر من أي موقف آخر . فقد كان هناك تقليد جرى العرف عليه بينهم ، اتفقوا عليه لما فرقتهم الأيام ، هو أنه على الرغم من كل الحزازات والخلافات وتعاقب الدخول والخروج من الحيـاة العامة .. هذا التقليد هو أن يتزاوروا في المناسبات الاجتماعية وفي العزاء وفي المرض أو - وهذه أضعف الايمان - بأن يستفسر الواحد منهم عن الآخر .

لهذا فقد كان عبد الناصر في منتجعه العلاجي في تسخالطوبو حزينا لأن بعض رفاقه لم يسألوا عنه .

وكنت أتصور ان هذا بعض ما يضاعف من متاعب مرضه .

وخيل لى أنه قد يكون مناسبا ان يسأل عنه البغدادي بالذات ، كواحد من الرعيل الأول وكصديق قديم .

وكنت أشعر أو الرئيس الراحل مستعد لاعادة البغدادى الى صورة الحياة العامة .

لماذا البغدادى :

كان وراء هذا التفكير ثلاثة عوامل :

أولها : ان التنافس بين المشير عامر رحمه الله وبين البغدادى كان من عوامل تباعد البغدادى عن عبد الناصر .. فكان ذهاب عامر بعد ظهوره بمظهر التآمر على فرض نفسه على القيادة السياسية عاملا من عوامل مراجعة النفس والحاجة الى من يملأ الفراغ .

ثانيها : ان موجة مراجعة النفس بعد نكسة ٥ يونيو ، امتدت الى كل شيء .. وكان يتجلى فى احاديث عبد الناصر أمامى فى تسخالطوبو أنه لم يعد يدهشه شيء فى محيط العلاقات الانسانية والسياسية . فعبد الحكيم عامر الذى كان توأمه الروحى انتحر بعد ضبطه متآمرا عليه . والمقاومة الفلسطينية تفتح عليه النار وهو الذى كان قد دفع زهرة عمره وعمر ثورته من أجل فلسطين ، و .. الى آخر قائمة من انتقال العواطف والاحداث والناس من اليمين الى اليسار وبالعكس .

وثالثها : ... وأخيرا فقد شملت موجة مراجعة النفس تساؤلات تكررت أكثر من مرة فى عبارات مقتضبة ظهرت فى أحاديث عبد الناصر حول ضرورة ان يجدد عبد الناصر شباب ثورة يوليو بان يقوم بانقلاب سلمى ضد بعض الذين وقعت الثورة فى أسرهم من المستغلين ودعاة الارهاب والتعذيب . وهذا كان يقتضى صورة دستورية أشد رحابة وانفتاحا .. وبدا أن للبغدادى مكانا فى عقل ووجدان عبد الناصر ، ومكانا فى الصورة التى

بدأ يرسمها للانقلاب الذى ينوى أن يقوم به ، على أساس أنه لابد ان يعتمد على أكبر عدد من الباقين من الرعيل الأول للثورة .

« هكذا كان تفكير عبد الناصر في تسخالطوبو » .

« ولكن الغريب ان البغدادى رفض مجرد السؤال عن صحة عبد الناصر ! » .

« وكنت أنا الذى وجهت اليه بنفسى ، بطريقة غير مباشرة ، من تسخالطوبو ، رسالة عبر اسلاك التليفون بأن يقوم بهذه المبادرة (الاستفسار عن صحة عبد الناصر) .. وقد تسبب تطوعى بهذا فى ان عبد الناصر فصلنى أنا ومحمد أحمد من الخدمة لمدة ٢٤ ساعة ! »

حادث فى تسخا لطوبو :

وتفصيل هذه الحكاية ، التى أذيعها هنا ، لأول مرة ، وأدلتها محفوظة فى أرشيف المكالمات التليفونية المسجلة في جهاز الأمن فى مصر .. تفصيلها هى انني اتصلت ذات يوم من تسخالطوبو بالسيد « عبد الحميد بهجت » وهو ضابط كبير من الضباط الاحرار ، وكان يحتل منصبا مدنيا كبيرا فى وزارة الاقتصاد وقتها ... وكانت ، وما تزال ، تربطه علاقة وثيقه بالسيد عبد اللطيف البغدادى .. وقلت له ما معناه : اتصل فورا بالبغدادى وقل له ان يرسل برقية الى تسخالطوبو ، يستفسر فيها بشىء من الحرارة عن صحة الرئيس عبد الناصر ، فاننى المس من احاديث الرئيس الخاصة جدا هنا أنه يميل الى اعادة البغدادى الى الصورة ، وانت تعلم ان الرئيس عاطفى ، وأؤكد له بناء على مسئوليتى ومعلوماتى ان هذه البرقية ستدمر حاجز الجليد الذى يفصل بين الرجلين .

ووعدنى السيد عبد الحميد بهجت ، بذلك ، وأكد لى أن هذه الحكاية مسألة بسيطة !

ولكن البرقية لم تصل .. لأن البغدادى رفض ان يرسلها أصلا ، ويقال أن السيد البغدادى لما نقل اليه السيد « عبد الحميد بهجت » هذه

الرسالة ظن أن الرئيس عبد الناصر هو الذى دفعنى الى ذلك ، لمجرد التلذذ باظهاره ـ أى اظهار البغدادى ـ بمظهر المتهالك على التزلف لعبد الناصر » .

وبقى عبد الناصر فى تسخالطوبو حزينا لأن البغدادى لم يستفسر عن صحته ... وانتوى حين يعود أن يتصل به معاتبا ، ويذكره بأنه لم يقصر فى الاهتمام والاستفسار عن صحته ـ صحة البغدادى ـ لما مرض بعد خروجه من الحياة العامة فى مصر ، وأن يسأله : هل يمكن أن تفرق السياسة بين قلبى صديقين قديمين ؟ .

كانت نية عبد الناصر على احداث التغيير لاشك فيها .. بل اننى أجازف وأقول ان الرئيس الراحل كان مصرا على ارجاع البغدادى الى صورة الحياة العامة رغم موقفه من ازمة عبد الناصر الصحية . وهذا يبرر ويفسر مخاطبة الرئيس لوزرائه فى أول جلسة لمجلس الوزراء فى أول يوم آخد بعد عودته من العلاج فى الاتحاد السوفيتى قائلا : جهزوا استقالاتكم . (وهنا يفتح الجيار قوسا ليقول ان هذه العبارة مدونة فى محضر اجتماع الرئيس بوزرائه فى ذلك اليوم) .

الفـــخ الاول :

« ولكن تصاريف القدر أعجب من تصاريف السياسة ... والمصادفات التى تعمق عوامل البعد أو القرب بين الرجال أشد غرابة من مصادفات الافلام الروائية ... فقد كان الرئيس عبد الناصر قبل سفره الى رحلة العلاج فى الاتحاد السوفيتى بعدة شهور قد اتخذ قرارا بتوحيد المعاشات التى تمنح لاعضاء مجلس قيادة الثورة ومن فى حكمهم . وبمقتضى هذا القرار فقد خفض معاش البغدادى وكمال الدين حسين الى مستوى معاش زكريا محيى الدين وعلى صبرى ... وتأخر ابلاغ البغدادى وكمال الدين حسين بهذا القرار ، بدون قصد .. وانما كانت المسألة كلها اهمالا فى أهمال .. حتى أتت السنة المالية الجديدة ، وكانت تبدأ فى يوليو وقتذاك وفوجىء البغدادى وكمال الدين حسين فى أغسطس ـ بعد عودة الرئيس من تســخالطوبو ـ فوجئا

بتخفيض معاشيهما •• ولا أعرف ماذا كان رد فعل كمال الدين حسين وقتها •• وانما الذى أعرفه أن البغدادى غضب غضبا شديدا ، وقال علنا فى مجالسه : ان عبد الناصر أوعز الى محمود الجيار ان يتصل بصديقى عبد الحميد بهجت من تسخالطوبو لا ستفسر عن صحته • فلما رفضت • عاقبنى بتخفيض معاشى •

ونقل أحد (أولاد الحلال) من أقرب أصدقاء البغدادى هذه الكلمة الى مخابرات رئاسة الجمهورية ، فنصب منها الذين يحاصرون عبد الناصر أول فخ لى • وأبلغوه بأننى اتصلت بالبغدادى من الاتحاد السوفيتى ، وطلبت منه السؤال عن عبد الناصر •• باسم عبد الناصر !

وغضب عبد الناصر • واتصل بمحمد أحمد سكرتيره وقال له : هل حدثت مكالمة بين الجيار وبين عبد الحميد بهجت صديق البغدادى ؟ (وكانت جميع مكالمات « تسخالطوبو » مع مصر بما فيها مكالمات الرئيس نفسه تسجل فى مخابرات رياسة الجمهورية بعلم الرئيس ، وفى دوائر أجهزة مصرية أخرى بدون علم الرئيس) !

فقال محمد أحمد : نعم • حدثت هذه المكالمة •• ولكن ليس فيها مايدل على أن سيادتك الذى طلبت الاستفسار عن صحة البغدادى •

فقال له عبد الناصر : ولماذا لم تخبرنى بذلك ؟

فأجاب محمد أحمد أنه لم ير فى ذلك شيئا غير عادى ••

فقال له عبد الناصر : أنت والجيار تلموا ورقكم وتروحوا تقعدوا فى بيوتكم • انتم الاتنين مرفودين •

وخرج محمد أحمد من مكتب الرئيس عبد الناصر وطلبنى بالتليفون ، حيث أعمل مديرا لمكتب الرئيس للشئون العربية وقال لى :

ـ سيب كل حاجة فى أيدك وتعال فورا •

وذهبت الى مكتب أحمد ، فاذا به يجمع أوراقه الخاصة ، وكان واقفا حزينا •

وسألته عن السبب فقال لى : الرئيس رفدنى •

وقلت له : يا شيخ إن الرئيس لا يمكن ان يستغنى عنك •• (ثم مجاملا) •• بل انه يستطيع أن يستغنى عنى ولا يستغنى عنك •

فقال محمد أحمد : ما هو كمان استغنى عنك •• وبيقول لك انت كمان تقعد فى بيتكم • !

ثم اندفع يروى لى قصة المكالمة بينى وبين صديق السيد البغدادى ، والمسجلة على شريط •• (واستطرد قائلا : الحكاية قيلت للرئيس هكذا : بغدادى يقول ان عبد الناصر طلب منه على لســـان الجيار ان يســأله عن صحته •• فلما رفض •• عاقبه الرئيس بتخفيض معاشه) •

فقلت لمحمد أحمد : اوعى تلم ورقك أو تمشى •• أنت تعلم ان الأطباء السوفييت أمروا عبد الناصر بألا ينفعل • ولو تركناه (لهؤلاء الناس) لقتلوه • فهم يريدون القضاء عليه • ويريدون ان يحكموا الحصار حوله • ثم ان عبد الناصر حين يطردنا يشبه رجلا يغلق باب بيته فى وجه أولاده ، فاذا صدقوه خرج وراءهم مذعورا يبحث عنهم •• سيبنى اتصرف ••• وفعلا تصرفت •••

ذهبت الى أنور السادات • ورويت له القصة بحذافيرها • ورجوته ان يقترح على الرئيس ان يطلب تفريغا للشريط المسجل للمكالمة ، ليتأكد ان الاقتراح كان منى وليس فيه ما يمكن ان يوحى بأن عبد الناصر كان الموعز أو حتى أنه كان يعلم •

ثم قلت للسيد أنور السادات : وقل له أيضا ان محمود الجيار يقول لك أنه لن يذهب ليقعد فى بيته لأن هناك مراكز قوى تحاول منذ بزغ نجمك ان تعزلك عن كل رجالك الذين نبذوا طموحهم الشخصى وقنعوا بأن يعيشوا فى ظلك كحرس شخصيين لك ••• فبلغوا درجة الوزير ومرتبه

وترتيبه فى البروتوكول ، ولكنهم ارتضوا لانفسهم ان يظلوا فى الحقيقة والممارسة مجرد ••• حرس ••• وعلى كل حال فاننى لن انقطع عن عملى فى خدمة عبد الناصر الا بالقوة •

وضحك أنور السادات •

وبعدها ذهب الى الرئيس الراحل وأبلغه كلامى ••• فضحك عبد الناصر أيضا • وألغى قراره بفصلى من الخدمة ••• وكذلك ألغى قرار فصل محمد أحمد •

الفخ الثانى :

هكذا فشل الفخ الأول • وكانت غايته اننى فصلت وعدت فى ٢٤ ساعة •

ولم اتردد بالطبع فى ان أقول للرئيس الراحل رأيى فى أهداف هذا التدبير الفاشل ، وان هؤلاء الناس يريدون محاصرته ••• ومصممون على الا يعرف شيئا أو يفعل شيئا الا من خلال الصورة التى يرسمونها له •

وكان واضحا ان عبد الناصر يعرف هذا • وأنه يدبر للخلاص من هذه الجماعة بأسرها •

ولكن الجماعة من جانبها كانت تدبر أمرها • ولم تلبث أن رسمت لى — فيما نرسم — فخا جديدا •• مدبرا بمهارة هذه المرة ! •

كانت احدى مهامى فى مكتب الرئيس الراحل — كما سبق أن ذكرت — تلخيص اتجاهات الرأى العام من خلال الرسائل التى يبعث بها المواطنون الى رئاسة الجمهورية • وكان الرئيس يلزمنى أن أسجلها بأمانة ، وبكل ما فيها من شتائم أو اساءات • وكنت أسجل هذا فى تقرير يومى موجز ، ثم فى تقرير أسبوعى مطول •

وكان يطلع على هذه التقارير بالطبع بعض اعضاء الجماعة التى تحاصر عبد الناصر •

وإذا بهم يجمعون بعض ما في هذه التقرير ، ويدسون على من يكلمني في موضوعاتها ••• ثم يرفعون الى عبد الناصر تقريرا قالوا انه من أعضاء التنظيم السرى •• وجاء في التقرير أنني أهاجم عبد الناصر في مجالسي الخاصة ، وأقول عنه كذا ، وكذا وكيت •• وكيت مما حصلوا عليه من تلك التقارير !

كانت لعبة ذكية • جازت على عبد الناصر نفسه •

ولم أعرف وقتها أن عبد الناصر اتصل بأنور السادات ، وطلب منه أن يحقق معي بشأن ما بلغه عني •

لم أعرف •• لأن السادات لم ينفذ ما طلب عبد الناصر ، ولم يجر معي أي تحقيق • فهو كان يعلم بخبرته ، وبمعرفته لألاعيب هذه الجماعة ، أن المسألة كلها من تدبيرهم •

لكنني ذات صباح فوجئت بأنور السادات يطلبني تليفونيا في قريتي ، ويقول لي :

ــ أنا والريس في القناطر يا جي •• وعاوزين نتغدى فطير مشلتت •

ثم أضاف قبل ان أجيب :

ــ وعاوزين الفطير من بلدكم • ياللا أعمل لك همة •

وانتهى الفخ الثاني عند هذا الحد •

كان عبد الناصر يتصور ان الرئيس السادات قد حقق معي • وان هذا أغضبني فأراد ان يصالحني •

والله أعلم هل تركه السادات يعتقد هذا حتى يتم الصلح • أم أنه قال له الحقيقة واقنعه بأن شكوكه على غير أساس •

أقول « الله أعلم » ••• لأن أحدهما لم يفاتحني في الموضــــوع بعد ذلك • والسبب في اعتقادي هو انهما كانا يعلمان ما وراء الفخ كله ، وكانا

يدبران للخلاص من الجماعة بأسرها •• ولم يشأ أحدهما ان يبوح بما يفكران فيه •

فقد بلغ من نفوذ هذه الجماعة ، وسيطرتها ، ان عبد الناصر أصدر قرارات جمهورية لم تنفذ • وان قرارات لم يسمع بها نفذت دون علمه ، أو عرف بها بعد تنفيذها • وان كثيرين اعتقلوا وخرجوا من المعتقل دون ان يعلم •• مع ان أوامر الاعتقال كان مفروضا أنها صادرة بأسمه وتوقيعه •

على أن فشل الجماعة فى الايقاع بى لايعنى أنها لم تكن مسيطرة •

ان ما انقذنى هو العلاقة الخاصة مع عبد الناصر ، والثقة الخاصة التى كنت إتمتع بها لديه • ولو نجحوا فى هز هذه الثقة لكان محتملا ان يكون لى مصير آخر •

بل لقد بلغ من نفوذ الجماعة أنها عرفت بخطة عبد الناصر للخلاص منها • ونجحت فى أعدام هذه الخطة بمجرد وفاته ، حتى لا يطلع عليها خليفته أنور السادات •

وكان طبيعيا ، بعد وفاة عبد الناصر ، أن تكون تصفية هذه الجماعة بعض ما يشغل خليفته السادات • وكان طبيعيا ان يكون موقعى الى صفه •

ولكن تلك قصة أخرى •

الفصل السابع

* سر خزانة عبد الناصر
* مفتاحان .. وشفرة سرية مع سامى شرف
* محتويات الكراسة المسروقة .

كانت آلام عبد الناصر ــ أيام رحلة علاجه فى تسخالطوبو فى الاتحاد السوفيتى فوق طاقة البشر .

ولم تكن كلها آلاما جسدية .

ومع أنه استعاد ، بعد رحلة العلاج فى « تسخالطوبو » ، بعض صحته الجسدية والنفسية الا أنه لم يعد أبدا نفس الرجــل . وقد أدرك ذلك الطامعون من أقرب أعوانه ، ومن بعض زملائه القدامى الذين يأكلون لحمه ميتا فى هذه الأيام ... وجرى نوع من التفاهم الصـامت بين الجانبين على الاستفادة من الفرصة .

لكن الأعوان طبعا كانوا هم الفائزون بنصيب الأسـد .. واخذوا السلطة كلها تقريبا فى أيديهم وتفاقم نفوذهم الى الحد الذى جعل عبد الناصر

ـ برغم آلامه وانهيار صحته ـ يخطط لاحداث تغيير شامل في نظام الحكم واشخاص المحكمين وهو عمل كان أقرب الى التخطيط لثورة جديدة •

ولكن هذا التخطيط نفسه لم يلبث ان وقع في براثن الاعوان الذين دبر ضدهم •

وكان على رجل آخر ان يبدأ التخطيط من جديد •

ولنترك محمود الجيار يروى القصة كلها ، من البداية ، كما عاصرها بنفسه ••• مع جمال عبد الناصر •

آلام غير عـادية ؟

لم تكن آلام عبد الناصر عادية ، لأن مرضه لم يكن عاديا ، كان الجير الذى فى دمه يترسب بين عظام العمود الفقرى واللحم الذى يغلفها ، فيسبب آلاما مبرحه •• ويجعله عاجزا عن البقاء فى وضع الجلوس ، أو الرقود ، أو فى أى وضع ، أكثر من ثلاث دقائق •

وعندما ذهبنا الى تسخالطوبو فى رحلة علاجه ، بكيت عندما رأيته ينزل من السيارة • فقد مد ساقه أولا ، ثم زحف ليهبط من المقعد ، ثم عجز عن الاستمرار •• فأسرعت اليه أساعده وأنا لا أصدق عينى ، ولا أريد أن أصدق •

وبعدها انتهزت أول فرصة وخلوت الى نفسى ، لأبكى على راحتى •

وزاد من تعاستى ما شاهدت من آلامه بعد ذلك • ومازلت أذكر ذلك اليوم قال لى وهو فى قمة الألم :

أنا ما ينفعنيش دكتور يا « جدع » •• شوف لى نجار يطلع المسامير اللى فى ضهرى •

وكان العلاج الأساسى الذى يستخدمه الاطباء السوفيت لاذابة هذا الجير للعين هو الحمامات ذات الاشعاع •

والغريب أنه فى نفس هذا الوقت كان فى مصر جهاز يؤدى نفس المهمة ، ولكن لم يفطن اليه أحد •

وكانت خطوات عبد الناصر حين يمشى ترغمنا ـ نحن مرافقيه ـ على أن نجرى لنلحق به أما الآن ، فاصبحنا نهدىء من خطواتنا كثيرا جدا •

عمـل جنـونى ـ •

وذات يوم ، وتحت تأثير تفكيرى المتصل فى هذه الحالة التى تردت اليها صحته ، خطر ببالى خاطر دفعنى ـ لا أدرى كيف ـ الى عمل جنونى •

خطر لى أن مفتاح علاج عبد الناصر نفسانى ، لا جثمانى • أنه رجل فى معركة • والوضع المهيمن على قناة السويس هو مصدر آلامه الحقيقى ، وربما سببه الوحيد •

وأكد عندى هذه الفكرة أنه ، وهو لا يحتمل الجلوس ثلاث دقائق فى وضع واحد ، كان يتحمل الوقوف ثلاث ساعات ليخطب فى الناس ويحدثهم عن المعركة •

واكد الفكرة أيضا أنه ، فيما نوبات الألم ، كان تفكيره يتجه مباشرة الى حاجتنا من السلاح ، وما ينقص الطيران والدفاع الجوى بوجه خاص •

تحت تأثير هذه الفكرة ، أقدمت على تصرف لم يكن يحق لى أن أقدم عليه •

دعوت الطبيب المعالج ، دكتور ايفان ، ومستشار الخارجية السوفييتية ، « سلطافوف » الذى كان صديقا لى وكان يتقن العربية الى حد يثير الدهشة •• دعوتهما الى جلسة لم استشر فيها أحدا •

وفى هذه الجلسة قلت لهما ما ملخصه :

ـ اسمعوا • ان علاج عبد الناصر ليس فى الحمامات واذا كنتم تريدون شفاءه حقا ، فدواؤه وهو تزويده بحاجات المعركة •

ومضيت أترافع عن هذا الطلب ، وأذكرهما بأن انتصار عبد الناصر في صالح بلدهما . فهو الذى صرع حلف بغداد الذى كان آخر طوق فى حلقة الحصـــار حول الاتحـاد السوفيتى وهو قد صرعه دون اتفــاق مع موسكو ، ودون سلاح منها .

وهو الذى اتاح الفرصة لتعامل طبيعى وودى بين موسكو والعرب .. ولن يكون فى صالحهم أن يعجز عن الثأر لوطنه وأمته ، وتحرير أرض بلاده ... ثم تماديت وقلت :

ــ انكم لا تعالجون مجرد مريض .. وانما تعالجون قائدا يخوض معركة .. ومفتاح شفائه هو هذه المعركة .. اعطوه السلاح وسترون أنه لن يعود فى حاجة الى علاج .

ثم تماديت أكثر وقلت :

ــ أبلغوا هذا الحديث الى الزعماء السوفييت . واذا كان هذا صعبا ، فاطلبوا منهم موعدا أقابلهم فيه . وأبلغهم بنفسى .

ويبدو أن شيئا فى كلامى ، أو ربما حرارة مرافعتى ولهجتها ، بالاضافة الى الصداقة بيننا جعلت الرجلين يتحمسان لما قلت .. ويؤكدان أن الرسالة ستبلغ القادة السوفييت فى نفس اليوم .

وخرج الرجلان وقد احسست بأننى أزحت عن نفسى عبئا كان يثقل على صدرى ، واديت واجبا كان يجب ان أؤديه .

ولكننى كنت أشعر بالذنب أيضــا .

فقد سمحت لنفسى بأن أقول كلاما لست مفوضا بأن أقوله وأبلغت رسالة لم يكلفنى عبد الناصر بأبلاغها ، ونمت وأنا موزع ما بين الراحة لأنني أديت واجبى ، والقلق لأننى تجاوزت حدودي .

وفى الصباح التالى كانت تنتظرنى مفاجأة مزعجة .

مدب مسلب ! ..

كان الزعيم الراحل يأخذ حمامه العلاجى كل صباح فى السابعة والنصف ، ثم يعود للافطار فى الثامنة . وكان بين المصحة والحمام حوالى ٤٠٠ متر .

ونظرت فى الساعة بعد العودة من الحمام فوجدت الوقت مبكرا ، وقررت أن أظل مستلقيا فى فراشى .

واذا بالصديق سلطانوف والدكتور ليفان يدخلان الحجرة ووجهاهما يتألقان من فرط السعادة ، ويبلغانى بأنه : خلاص ... تم ما كنت أريده :

« تم ابلاغ الرسالة للقيادة السوفييتية . واقتنعت بها .

« وحاليا يقوم برجنيف وجروميكو بالاتصال مع عبد الناصر لتحديد موعد الاجتماع به ومناقشة فى الموضوع » .

وتوقع سلطانوف وأيفان أن أقفز وأقبلهما على هذه الأنباء السارة . ولكنى لم أقفز ولم أقبلهما .

فرحت ، نعم : ولكنى تذكرت أن المسألة بدأت بتجاوز من جانبى .. وما كان يجب أن أسمح لنفسى بهذا التجاوز .

وأحسست بالخطأ الذى أرتكبته يتضخم أمام عينى ... ويتحول الى أثم كبير ، لاغفران له . وخاصة ان عبد الناصر خالى الذهن عما فعلت ... وقد يكونو الزعيمان السوفيتيان فى الطريق اليه الآن ، ليناقشاه فى مسألة لم يثرها ، ولم يكلفنى باثارتها .

ومضى بعض الوقت وأنا مرتبك ، والرجلان فى دهشة من أمرى . لكننى قلت لنفسى فى النهاية : فليكن ما يكون .

وشكرت الرجلين بحرارة تناسب حرارة سرورهما ، ثم خرجت واتجهت رأسا الى حجرة عبد الناصر ووجدته مستلقيا على السرير ، شبه

واقد ، ومن وراء ظهره عدد من المساند • وجلست على كرسى بواجهته وأنا لا أدرى كيف أبدأ •

وتأملنى عبد الناصر لحظة ثم قال :

خير ، شايفك مش على بعضك •• انما مؤكد عاوز تقول حاجة •

قلت وأنا أشعر بحرج حقيقى :

ــ •• والله يا فندم •• أنا عملت حاجة امبارح • يمكن تشنقنى عشانها • وخايف أكون السبب فى ضرر كبير •

فتململ عبد الناصر وهو يحاول تخفيف آلامه بتغير وضع الوسائد ، وقال بألم :

ــ يا اخى أتكلم على طول ، ما تتعبنيش !

فغامرت ورويت القصة كاملة ، وبكل تفاصيلها •

وانتظرت أن أرى رد الفعل على وجهه ، ولكنى لم أر أى انفعال • وزاد هذا حيرتى وخوفى •

ومضيت ، بعد أن أتممت الرواية ، أدافع عن نفسى :

ــ معلهش يا فندم •• أنا مدب • وغلطان • وسماح بأه •

واذا به ينفجر ضاحكا ، ويبدو كما لو كان قد نسى تماما آلامه ، أو كما لو كان لم يمرض أبدا ثم قال بين ضحكاته : هو أنت ؟

ثم سكت وقال : معلهش يا « جى » • مدب • مدب •• انما أنت خدمتنى ، قلت الكلام اللى كنت عاوز أقوله • وكان مش ممكن أقوله لأنى يجوز أن أستجدى • كان لازم واحد مدب زيك يعفينى من هذا الكلام •

ثم روى لى أنه منذ الصباح اتصل به برجنيف ، وقال له : ان الاتحاد السوفييتى يهمه فى المقام الأول صحة الزعيم المصرى •• ويرجوه الا يقلق نفسه بموضوع السلاح ، لأنه سيحصل على ما يريد •

وبعد هذا اتصل جروميكو ، وأبلغ عبد الناصر أن مصمم طائرات الميج السوفييتية موجود بالصدفة فى بلد قريبة •• وأنه يرجو أن يحدد له الرئيس موعدا لمقابلته ، حتى يعرف منه طبيعة احتياجات السلاح الجوى المصرى •

وقال لى عبد الناصر بعد هذا :

ـ قوم يأه أتصل بمصر • وأطلب منهم أن يرسلوا فورا كل المعلومات اللى عندنا من سلاح الطيران الاسرائيلى حتى نطلب ما يلزم من أسلحة مضادة •• حتى طائرات الفانتوم وكانت اسرائيل لم تحصل عليها بعد • طلب مواصفاتها أيضا •

وعاد عبد الناصر من هذه الرحلة ، فيما بعد ، سعيدا يروى لكل من يقابله من الاصدقاء كيف ساعده رجل « مدب » مثلى فى نجاح رحلته •

الوجـه الآخـر ••

على أن الوجه للصورة لم يكن بهذه الطرافة •

فقد عادت الآلام فى القاهرة •• وضاعفتها بوجه خاص متاعب الاعوان المتنازعين ، ثم بعد عامين متاعب الفلسطينين فى الاردن : وهى متاعب كانت تنذر بالوضع الدامى التى انتهت اليه فيما بعد • والذى كلف عبد الناصر حياته •

وانتهز أعوان عبد الناصر الفرصـــة ، فاستشرى سلطانهم بلا حدود مطمئنين الى انشغال الزعيم بقضية الثأر من العدو ، واعداد القوات المسلحة ليوم الانتقام •

وقد سبق أن قلت أنهم أصبحوا ينفذون قرارات لم يصدرها ، ويتناسون قرارات أصدرها ويعتمدون على أن مصادر معلوماته جميعا تمر من خلالهم •• وسبق أن رويت محاولاتهم للاطاحة بى ، وبالسيد محمد أحمد سكرتير الرئيس لأننا كنا نمثل الثغرة التى يمكن أن تصل من خلالها المعلومات التى يريدون اخفائها •

والواقع أننا كنا نمثل ثغرة في حلقة حصار محكم الى حد لا يمكن تصوره .

فجميع أجهزة المعلومات كانت في أيديهم . وكانت لهم أيضا أجهزة أنشأها كل منهم لنفسه وكانوا يسجلون مكالمات بعضهم البعض ، ويتجسس كل منهم على أسرار الآخر .

وكان عبد الناصر قد أنشأ ـ بعد انفصال سوريا ـ تنظيمه السياسى الطليعى ، ليكون حزبا للاشتراكية والتحرير فاستولوا على هذا التنظيم أيضا ، وشحنوه بشللهم وأتباعهم وشلوا فاعلية المناضلين داخله ، وحولوه الى جهاز آخر .. من أجهزتهم .

وبلغ من سلطانهم ان رجلا مثل عبد اللطيف البغدادى ، الذى كان وقتها في خصام مع عبد الناصر ، كان حريصا على كسب ود سامى شرف ، الى حد أنه عين شقيقه « عز الدين شرف » سكرتيرا خاصا له .

في هذه الظروف بدأ تفكير عبد الناصر في القيام « بثورة أخرى » تخلص البلاد من سرطان هذه الجماعة . وقد بدأ بالفعل يرسم صورة جديدة ، تتضمن تعديلات جذرية في نظام الحكم وأشخاصة . فقد كان واضحا أنه لا يمكن أن يخوض معركة تحرير ناجحة في ظل الاوضاع القائمة .

وأغلب الظن ان نائبه ـ الرئيس السادات ـ كان على علم بما يفكر فيه ، وربما بالتفصيل أيضا .. فقد كان وقتها رحمه الله حريصا على أن يكون السادات على اتصال بأدق أفكارة واسراره .. كأنما كان يشعر مقدما بأنه قد آن أوان كتابة وصيته ، وتسليم الامانة الى الرجل الذى سيخلفه .

وكأنما كانت تشعر بهذا أيضا جماعة المعاونين !

سـر الخـزانة ..

عندما فتحت خزانة عبد الناصر بعد وفاته ، كانت فيها كراسة عبد الناصر الخاصة ، التى اعتاد أن يدون فيها خططه ، وأفكاره ، ومشاريعه المقبلة .

ولكن .. عندما أعيد فتحها بعد أيام .. كانت هذه الكراسة قد اختفت .

فأين اختفت ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

يفسر اللغز قصة الخزانة نفسها .

لقد اشترى هذه الخزانة « حسن التهامى » من أمريكا .

وهى خزانة لا تفتح الا اذا تكاملت ثلاثة أشياء : مفتاح أول ، ومفتاح ثانى وأرقام سرية يجب أن يعرفها الذى يريد فتح الخزانة .

وأرسل حسن التهامى من الخزانة المفتاحين ، وشفرة الارقام السرية .

فأعطيت مفتاحا لعبد الناصر . واحتفظت بالثانى ثم سلمته لمحمد أحمد ، عندما عملت بمجلس الأمة .

ثم جاء حسن التهامى ومعه نسخة أخرى من كل المفتاحين وسلمهما لسامى شرف .. الذى احتفظ بهما .

ولا أدرى هل كان عبد الناصر يعرف هل احتفظ بهما أم لا .

وأغلب الظن أنه لم يعرف .. فلو كان قد عرف لاخذهما ، ضمانا لسرية خزانته ، ولا اعتقد ان حسن التهامى قد أخبر ، أيضا . فقد كان يكفى وقتها ان يسلم المفتاحين لسامى شرف لكى يعتبر أنه سلمهما الى جمال عبد الناصر نفسه .

ثم رحل عبد الناصر عن العالم .

وتم فتح الخزانة أول مرة فى حضور الرئيس السادات ، ولجنة كان من بين أفرادها :

• سامى شرف • وعنده مفتاحان ولكن لا يعرف الارقام السرية •

• محمد أحمد • وعنده مفتاح واحد •

• هدى عبد الناصر • وعندها أيضا مفتاح واحد هو مفتاح الرئيس الراحل وتعرف الارقام السرية •

ويومها تم اغلاق الخزانة ، بعد جردها ، دون أن ينتزع أى شىء من محتوياتها •

وعندما أعيد فتحها ، واكتشف اختفاء الكراسة منها كان تفسير اللغز واضحا من وجهة نظرى •

فلا يمكن أن تكون الخزانة قد فتحت سرا بمعرفة محمد أحمد ، ولا بمعرفة أسرة الرئيس لان كل منهما لا يملك الا مفتاحا واحدا •

انما يستطيع أن يفتحها سامى شرف ، الذى يملك المفتاحين معا • والذى كان ينقصه ان يعرف الارقام السرية ••• وهو قد عرفها عندما حضر فتح الخزانة أول مرة •

ويومها حفظ الارقام • وأصبح فى استطاعته ، بعد أن حفظها أن يفتح الخزانة وحده •• بالمفتاحين اللذين معه !

ولكن لماذا يفتحها ؟

يجيب على هذا السؤال الشىء الذى اختفى منها : كراسة عبد الناصر •

لقد فتحها لكى يحصل على كراسة عبد الناصر ، ويعدمها قبل ان يطلع عليها السادات ، ويتسلح بها فى مواجهة الجماعة التى قررنا ان نرث عبد الناصر ميتا ، بعد أن ورثته حيا •

ولكن هل ادرك الرئيس السادات ذلك وقتها ؟

هل باح له عبد الناصر بما كان فى الكراسة ، وصارحه بابعاد التغيير الذين كان ينوى القيام به ؟

ذلك ما أعرفه • لأن الرئيس السادات لم يبح لى بهذا السر • ولم يقل كلمة تؤيده أو تنفيه •

ولكن ما أعرفه هو ان الرئيس السادات كان ينوى ، من جانبه ، ان ينفذ ما لم يستطع عبد الناصر ان ينفذه •

عرفت ذلك يوم قابلته ، بعد دفن الزعيم الراحل بيوم واحد !

تعليق ـ كان من راينا فى النص الأصلى لذكريات الأخ الجيار أن نحذف قصة « وساطتـه » لعبد الناصر لدى السوفييت لكى يعطوا له السلاح••• ولكن الجيار صمم على اضافتها !!

الفصل الثامن

* عبد الناصر في حرب الانتخابات ضد كمال حسين .
* تقارير سامي شرف وقصة القبض عليه .
* رشوة قدرها ٩٨ فدانا .

استدعى جمال عبد الناصر ذات صباح محمود الجيار . فلما دخل وجد عنده في المكتب شعراوى جمعه وسامى شرف وعبد المجيد فريد .

وطلب عبد الناصر شيئا ، بلهجة فيها بعض المداعبة . فرد الجيار على المداعبة بمثلها .. كالعادة .

واذا بعبد الناصر يسدد اليه نظرة حبست الكلمات في حلقه ، وأرغمته على التزام الأسلوب الرسمى في الكلام .

وخرج الجيار وهو يتساءل ماذا جرى . فالزعيم الراحل كان يسره ان يداعبه ، وان يرد عليه الدعابة وكل رفاقه من رجال الثورة شاهدوا ذلك ، وشاركوا فيه أحيانا ، فما الذى حدث اذن ؟

بعد قليل جاء الجواب :

خرج الذين كانوا عند عبد الناصر ، واستدعاه الرئيس مرة أخرى ، ولامه على مزاحه قائلا :

- لا تمزح معى أمام هؤلاء . فاهم ؟ هؤلاء موظفون !

وأدرك الجيار خطأه .

فالمزاح فى حضور زملاء عبد الناصر ورفاقه شيء ، وفى حضـــور موظفيه شي آخر . وهؤلاء الثلاثة كانوا مجرد موظفين .. أو هكذا كان يراهم عبد الناصر .

ولكن هؤلاء وغيرهم من « الموظفين » حكموا مصر باسم عبد الناصر ، ومن وراء ظهره وأحيانا أمام عينيه . وكان حكمهم صفحة من تاريخ الثورة تعتز بها . ولا تجد دفاعا عنها فلماذا سكت عليهم ؟

من الذى الجأه الى الموظفين ، وجعله يصبر على مهازل حكمهم ؟

فما من واحد منهم أراد أن يعتمد عليه ، وأتاح له السلطة الكافية ، الا وشرع فى تشكيل مركز قوة يحاول ان يشل فاعلية عبد الناصر نفسه .

ولهذا ، فان تاريخ مراكز القوة عند محمود الجيار لا يبدأ بالمركز الأخير الذى صفاه أنور السادات ، وانما يبدأ قبل هذا بكثير .

والغريب أن احدا لم يهتم حتى الآن بالتاريخ السرى لهذه المراكز ، مع أنه يفسر كيف انتهى الحال بثورة يوليو الى الوضع الذى اقتضى انقاذها بانتفاضة أخرى فى مايو ١٩٧١ .

حتى محمود الجيار .. الذى سيروى لنا الآن قصة مراكز القوة كاملة ، ما يزال يفضل أن يشير الى بعض الاسماء بالرمز ، ونترك لذكاء القارىء التعرف عليها لأنه لا يريد أن يبدو معاديا لاشخاص بالذات !

لكننا نجحنا فى النهاية ان نجعله يبوح بالاسماء .. باستثناء واحد .

ولنبدأ معه ، من البداية .

« جى » وسامى شرف !

قد يرى البعض أن اللواء محمد نجيب كان أول من حاول تشكيل مركز قوة يفرض به ارادته على ثورة يوليو •

ولكن محمد نجيب كان رجلا وضعته الثورة فى الصدارة باختيارها • وليس غريبا ان يطمح الى فرض سلطته • وعندما تطور الخلاف بينه وبين مجلس الثورة ، وأدى الى حوادث مارس ١٩٥٤ ، كان ذلك انقساما فى القيادة •• لا مركز قوة بالمعنى المفهوم •

انما بدأ تشكيل مركز القوة الأول فى تاريخ الثورة على يد رجل آخر ، وكان أول من حظى بثقة عبد الناصر ودفعه الى مركز الصدارة ، وأراد ان يجعل منه ساعده الايمن وربما حاكما من بعده •

ونزولا على رغبة الجيار ، فأننا سنكتفى بأن نرمز اليه بحرف « ب » •• لأن الرئيس الراحل كان يلقبه على سبيل الدعاية باسم « بيريا » : رجل البوليس السرى السوفيتى الشهير !

ونترك الجيار هنا يروى القصة :

كانت العادة ، فى المرحلة الأولى من حكم الثورة ، أن نتقدم الى الرئيس تقارير يومية عما يجرى فى البلاد ، وما يقول الناس ، وما يريدون •

وكانت هذه التقارير ترد الينا من مختلف الجهات ، وفى صورتها الخام على أوراق مختلفة الشكل والنوع والحجم •• فنقوم نحن ـ فى مكتب الرئيس ـ بتلخيصها • ونقدم اليه الملخص مع الأصول ، حتى يظهر جهد كل جهة منسوبا اليها •

ولكن •• فجأة بدأت ترد الينا ملخصات جاهزة • ومخططة بالقلم الاحمر والقلم الأزرق • وعليها اسم : « مكتب المعلومات » !

وأصبح المكتب يحجب التقارير الأصلية •

وسألت عن مكتب المعلومات هذا . فعرفت أنه مكتب جديد ، أنشأه السيد « ب » ، وجعل مقره مبنى منفصلا فى مجلس الوزراء . وعين فى رئاسته محيى الدين أبو العز .. باعتباره « مديرا لمكتب الرئيس للشئون الداخلية » . كما عين فيه أيضا سامى شرف .

ولفت نظرى هذا الاسم الأخير .

فقد حدث أننى عرفته لأول مرة فى ظروف شاذة : اننى قبضت عليه !

كان ذلك أيام مؤامرة رشاد مهنا .. الذى عينته الثورة وصيا على العرش بعد خروج الملك ، فبدأ يتصرف على أنه ملك فعلا ، وحشد عددا من الضباط للاستيلاء على السلطة لصالحه . وكان من هؤلاء سامى شرف .

وأبدى سامى عند القبض عليه هلعا كان مضرب الأمثال .

فانتهز الفرصة السيد « ب » وطمأنه وأغراه بأن يعترف على الجميع . وحوله بذلك الى شاهد فقط فى القضية .

ومن يومها أصبح سامى فرخة بكشك عند « ب » .. الذى كان يميل دائما الى استخدام هذا الصنف من الضعفاء .

على أن ارتيابى لم يكن سببه وجود سامى شرف هذا فى مكتب المعلومات . وانما كان سببه التقارير التى تصل من المكتب .

كانت تتحدث عن مؤامرات اغتيال لعبد الناصر . وتخوفه من الحركة والاتصال بالجماهير . كانت أشبه بخطة مرسومة لعزله ، وتحديد اقامته داخل بيته ومكتبه .

لم أكن ارتاح الى هذه التقارير . وحدث ان استدعانى عبد الناصر ذات يوم وسألنى عن مؤامرات اغتياله هذه ، وهل سمعت بها .

قلت : نعم .

قال : ولماذا لم تبلغنى ؟

قلت : ولماذا لم أبلغك ؟ مسألة تخصنا نحن المسئولين عن حياتك •

قال : مع هذا كان يجب أن تبلغنى •

قلت : لا •• ولن نبلغك أبدا !

فنظر لى بدهشة ، وهو على وشك أن يغضب •

قلت : فلنفرض اننى بلغتك • ماذا ستفعل أنت ؟ هل ستحمى نفسك بنفسك أم ستمتنع عن الخروج ؟ ان المسألة لا تخرج عن افتراض من أثنين : اما أنك تثق بنا ، فلا داعى لأن تشغل نفسك بواجباتنا •• وأما اننا لسنا محل ثقة ، فلا داعى للاحتفاظ بنا معك •

وخرجت وأنا قلق •

شعرت أن الرجل الذى قادنا الى ثورة يوليو ، والذى تشغله دائما قضايا بلاده الكبرى •• قد بدأت تشغله عدة تقارير مخططة بالاحمر والأزرق •

وانتظرت أياما جمعت فيها عددا من هذه التقارير ، ثم دخلت بها الى جمال عبد الناصر • ووضعتها أمامه ، ووقفت صامتا ريثما يطلع عليها •

وكانت عادتى عندما أريد أن أثير قضية أن اتصرف تصرفا يجعله هو الذى يسألنى •• وكان تصرفى هذا بهذا الهدف •

وقرأ عبد الناصر التقارير ، ثم نظر لى :

كان ــ رحمه الله ــ يقرأ فى وجهى بغاية السهولة رغبتى فى الكلام • فقال لى :

ــ مالك يا جى ؟ عاوز تقول أيه ؟

فأنكرت أنى أريد أن أقول شيئا •

فهز رأسه قليلا ، ثم سألنى فجأة :

ــ انت أيه رأيك فى سامى شرف ؟

قلت :

ـ والله يا فندم .. أنا لم اتشرف بمعرفته غير مرة واحدة : يوم قبضت عليه .

قال :

ـ أنت (و ..)

كلمة من ثلاثة أحرف . فيها معنى السب . ولكنه رحمه الله كان يستخدمها على الطريقة المصرية ، أو قبيل « تأكيد المدح بما يشبه الذم » ..

وسرنى كثيرا هذا السب المقنع ، فقد أدركت أنه يفهم ما فهمت ، وانه ليس مخدوعا كما كنت أخشى .

ثم سألنى :

ـ لماذا لم تقل لى من البداية رأيك .

فقلت :

ـ لانك لم تسألنى !

قال :

ـ تعرف تشتغل زيه ؟

قلت :

ـ والله يا فندم .. أنا أعمل فى بيتك ومكتبك منذ ثلاث سنوات . ولكننى لم اتعلم بعد تخطيط التقارير بالاحمر والأزرق وان أسرق مجهود غيرى وانسبه الى نفسى ، اذا ، كان هذا ما تعنيه .

فهتف رحمه الله :

ـ طيب أطلع بره بأه .. أحسن ما يحصلكش طيب !

خناقة في البـــلد :

كان كل شيء يدفع « ب » الى أن يكون مركز قوة : السلطة ، والطموح الشخصي ، وأيضا .. التربية الريفية !

فقد كان « ب » من عائلة لها نفوذها في الريف . وبحكم انتمائه لها كان يضطر الى مجاملتها ، وفي الريف لا يفهمون أن يكون لهم « ابن في مصر » ولا يخدمهم ، فما بالك اذا كان حاكما أيضا ؟

ويروي الجيار هنا نموذجا طريفا لما يمكن أن تقود اليه أمثال هـــذه الاعتبارات ، وكيف أدى صراع في قرية الى صراع في قمة السلطة !

في تلك الأيام كان من مشاكل الريف أراضي « طرح البحر » وهي أراضي يقطعها النيل من بعض القرى ، ويرسي بها في قرى أخرى على شاطئه .

وكان القانون يمنح هذه الأرض ملكا خالصا لمن يضع عليها يده لمدة ٥ سنوات . وطبعا كانت العائلات الكبرى هي التي تضع يدها ، متحالفة مع رجال مصلحة الاملاك .. وتؤجرها للفلاحين .

كان لعائلة « ب » رجل في مصلحة الاملاك ، يدلها على الأراضي التي طرحها البحر ... فيشترونها من ملاكها الأصليين بثمن بخس ، ويتصرفون فيها كما يشاءون .

لكن الموقف تغير طبعا مع الثورة .

بدأ الفلاحون يشكون ، وينشرون استغاثات في الصحف . وبحكم أني ريفي أيضا فقد زارني وفد من قرية مجاورة لبلدنا يطلبون مني أن أحميهم ، ألست أعرف عبد الناصر وأراه ؟

قلت لهم : أذهبـوا أولا وأزرعوا الأرض ، حتى تحتفظوا بحقـــكم القانوني .

ثم لجأت الى الدكتور عبد المنعم القيسوني ، وشرحت له الوضـــع . ونجحت في اقناعه بحماية حقوق الشاكين .

واذا بالدنيا تنقلب فى المنطقة !

بدأ التحدى بين القرى، وأصبحت المسألة ثارا بين عائلات وليس حقا فصل فيه القانون وبدأ يتردد شعار : انتوا عندكم الجبار لكن احنا عندنا فلان .. وح تشوفوا !

واذا بوالدى يستدعينى فجأة الى البلد .

وفى البلد فوجئت به يقدم لى عقدا بملكية ٩٨ فدانا من طرح البحر ، وباسم من ؟ باسمى أنا !

ونصحنى والدى بأن أقبل هذا العقد هدية من رجل مصلحة الاملاك أياه ... وأن أكف عن اثارة المتاعب .

لم يخطر ببال أحد أن منطق الثورة وراء تصرفى ، وانما فهم الجميع ان المسألة كلها — كما اعتادوا — نزاع على امتلاك الأرض . وفى أمثال هذا النزاع تكون الحكمة هى التوصل الى مساومة تعفى العائلات من الشجار !

وأخذت العقد وعدت به الى القاهرة .

وانتهزت فرصة ركوبى مع عبد الناصر وهو فى طريقه الى مجلس الوزراء ، وأخرجت العقد من جيبى ، وقدمته له .

وقرأ عبد الناصر العقد ، ثم طواه واعاده لى وهو يقول :

— طيب مبروك .

قلت :

— مبروك لى .. أملك ؟

فنظر لى نظرته النفاذة وقال :

— ماذا تقصد ؟ قل ما الحكاية بدون لف ودوران .

قلت :

ـ هذه رشوة لى • وقد رفضتها لأننى من رجالك ورشوتى معناها رشوتك •

ثم رويت له المشكلة كلها • وقلت أنها مشكلة لن يعود لها وجود لو الغيت المادة التى تسمح بتملك طرح لمن يضع عليه يده •

قال :

ـ أول ما توصل مجلس الوزراء اطلع فوق عند محمد فهمى السيد (المستشار القانونى) •• وقول له يغير الفقرة دى ، وبأثر رجعى ، وتطلع فى جريدة الوقائع دى الوقت !

ولم أصدق أذنى •

ولم يصدق الاستاذ محمد فهمى السيد ، ولكن أوامر عبد الناصر كانت صريحة •

فى نفس هذا اليوم كانت اللجنة الاقتصادية ، التى يرأسها « ب » منعقدة فى قاعة مجلس الوزراء ، ودخلت أوزع على اعضائها عدد « الوقائع » الذى تم طبعه ، وفيه التعديل •

وبعد قليل فوجئت بالدكتور القيسونى يخرج من الاجتماع مهرولا ، ويقول لى :

ـ أيه اللى عملته ده ؟

ـ عملت أيه ؟

ـ ده السيد « ب » ثائر جدا •• وبيقول ازاى يطلع قانون زى ده من غير ما يعرض على اللجنة •• وان الجيار هو اللى عمل كده ••

ـ اللى عمل كده عبد الناصر ، وشكاوى الفلاحين • أنا مالى •• ؟

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد •

فقد كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء فى بيت عبد الناصر • فوجئت

به يستدعينى الى الاجتماع ــ وكان حاضرا فيه السيد « ب » ــ ويقول لى :

ــ احك أمام الجميع ما قلته لى فى السيارة !

واسقط فى يدى •

ولكنى لم استطع الا أن أروى ما قلت مرة أخرى •

واذا بالسيد « ب » يثور ويقول :

ــ طب ما انتو كمان واخدين من الأرض دى •

فالتفت الى عبد الناصر قائلا :

ــ ودى الوقت ياريس ح تتحرك المباحث والمخابرات عشان يثبتوا كلام السيد « ب » رح يسيبوا شغلهم ، بدلا من هذا اقترح ان تطلبوا من مصلحة الأموال المقررة قائمة المزادات من ٥٠ سنة •• لتتأكدوا من أننا لم ندخل واحدة منها ، وليست تحت يدنا أية أرض من هذا النوع •

فقال عبد الناصر :

ــ أنت ح تقعد تعمل قعر مجلس ؟ خلاص اتفضل بأه •••

وانتهى الاشتباك الذى بدأ فى قرية وتحول الى صراع فى اجتماع مجلس الوزراء !

وفى اليوم التالى قابلت الرئيس كعادتى • فقال لى :

ــ هل تعرف ان « ب » كان هنا قبلك •

ــ لماذا ؟

ــ كان يقول لى أننى بالقانون الجديد أحرجته أمام اسرته ، وأنهم منذ بدأت هذه الحكاية يعيرونه بأن « الجيار » أقوى منه !

قلت :

ـ أنا .. أم الثورة ؟ ان الثورة هي التي فعلت ما يشكو منه .. ولست أنا صانع الثورة .

فابتسم عبد الناصر ولم يعلق .

ووراء ابتسامته كان واضحا لي ـ مرة أخرى ـ أنه ليس مخدوعا ، أو غائبا عما يجري ومع ذلك .

فان عبد الناصر لم يتخذ الخطوة الحاسمة لتصفية مركز قوة « ب » الا بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . وكعادته لم يتخذ القرار الا بعد ان تجمعت له عدة أسباب .

السبب الأول : موقف « ب » في أزمة مارس ١٩٥٤ في اليوم التالي لتمرد سلاح الفرسان .. فقد ترك الموقف يتدهور . وترك مكتبه ، ومسئولياته ومنصبه ، وقضى اليوم في مبنى القيادة بكوبري القبة !

والسبب الثاني والثالث : موقف مركز القوة هذا في معركة تأميم قناة السويس ، ثم في معركة العدوان . وهما موقفان تحتاج روايتهما الى كلام كثير ، قد يخرج بنا عن الموضوع الآن . ويحسن تأجيل هذا الحديث الى حين التعرض للأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر في فترة التأمين والعدوان .

المهم أنه تمت تصفية مركز « بيريا » بعد عدوان ١٩٥٦ ولكن سفينته افلت منها واحد فقط ، بقي في موقعه . وكان هذا الواحد : سامي شرف ! ذهب الرجل الذي جاء به . وبقي هو ، ليؤسس فيما بعد مركز قوة لحسابه الخاص .

انتخابات كمال حسين :

ذهب مركز قوة بيريا .. ولكن ليرثه على الفور مركز قوة جديد . بطله هذه المرة : السيد كمال الدين حسين .

وكان كمال حسين يحتل عددا من المناصب يصعب احصاؤها ولكن

أخطرها ، من زاوية طموحه الى تشكيل مركز قوة ، كان منصب المشرف العام على الاتحاد القومي •

ولم تكن الأمور على ما يرام بيني وبين كمال حسين •• لسبب غريب •

كنت باعتباري مديرا لمكتب عبد الناصر اتلقى شكاوى المواطنين ، وكان من عادتي أن أجمع الشكاوى الخاصة بوزارة التربية والتعليم وأرسلها الى كمال الدين حسين للعلم حتى يعرف ما الذي يجري في وزارته •

ومع أنني لم أكن أطلب منه ردا على ما في هذه الشكاوى ، الا أنه كان يعتبر مجرد ارسالها اليه أهانة له • فهو رجل فوق النقد من وجهة نظره !

وامعانا في الاستخفاف بهذه الشكاوى ، كان يضعها في مظروف ويعيدها الى رئاسة الجمهورية كما هي •• بدون أي تعليق •• فآخذها أنا واضعها في المكتب الى سابقاتها •

استمرت هذه اللعبة طويلا وأنا اكتمها عن عبد الناصر ، حرصا على علاقاته بزميله ، وحتى لا أتسبب في مشاكل بينهما •

ولكن الظروف أبت ألا تضعني وجها لوجه أمامه ، وفي معركة تنطوي على تحد صارخ !

كان الاعداد لانتخابات الاتحاد القومي يجري على قدم وساق ، وكمال الدين حسين هو المشرف عليه •

وكانت هذه فرصته الكبرى لتشكيل مركز القوة يطمح اليه • فقد قرر ألا ينجح الا الذين يختارهم أو يرضى عنهم •• حتى يضمن تنظيما سياسيا يدين بالولاء له وحده •

وذات صباح ، فوجئت بجمال عبد الناصر يستدعيني ، ويقول لي :

ـ هل تعرف عبد العزيز فتحي ؟

قلت :

ـ نعم •

كان عبد العزيز فتحي اركان حرب حسين فريد ، رجل الملك في الجيش ، ورئيس أركانه ، وقبض عليه ليلة الثورة • ولكنه ساير الموقف الجديد • ووصل الى ان عين رئيسا للاتحاد القومي في دمنهور • وكان كمال حسين يؤيده في الانتخابات الجديدة •• ليحتفظ بمركزه •

وقال عبد الناصر :

ـ ان عبد العزيز فتحي قد وقع تماما في براثن أحمد الوكيـــل •• رجل الوفد •• وأصبح تقريبا من اتباعه • ونجاحه معناه نجاح الوفد ضد الثورة • هل تعرف أن صورة النحاس باشا ما تزال مرفوعة في البحيرة ؟

قلت :

ـ وماذا تطلب مني ؟

قال :

ـ أطلب ان ترشح نفسك فورا •

وذهلت !! كنت بعد تجربة مجلس الأمة ، وبعد الصدام الذي جرى فيه ، والذي كشف عن اتفاق رباعي لعزل عبد الناصر •• قد اتفقت مع الرئيس على ان اكتفي بالعمل معه • ولا أرشح نفسي لعمل سياسي آخر •

وكانت انتخابات وحدات القرى قد أجريت • وانتخابات المراكز ستجرى بعد يومين • وكان القانون يسمح بأن أدخل انتخابات المركز مباشرة ، ولكن ••• كيف أرتب نفسي وانجح خلال يومين ؟

قال عبد الناصر :

ـ هذا أمر ، ولا أقبل فيه مناقشة •

وسافرت فورا ، وتقدمت للانتخابات ، ونجحت •

وجاء الأهالي يســـألونني هل سـأتقدم الى انتخابات المحافظة فقلت لهم : لا •

واذا بعبد الناصر يستدعيني مرة أخرى ، ويأمرني بأن أتقدم !

ولكن كيف ؟

ان دخولي هنا معناه الاصطدام المباشر بمرشح كمال حسين : عبد العزيز فتحي ، وهو رجل يقول للناس دائما أنه أستاذ عبد الناصر وعبد الحكيم عامر .. فضلا عن أن كمال حسين (الذي يعتبره الناس ممثل عبد الناصر) يؤيده ، وفوزي عليه معناه انني فزت في مواجهة عبد الناصر !

ولكن عبد الناصر صمم ، ولم يكترث بأية حجج سقتها .

قلت له :

ــ اذن سأنفذ أمرك . ولكنني اتوسل اليك .. أطلب من كمال حسين ان يرفع يده ، حتى لا يبدو هزيمة لمثل عبد الناصر .

وخرجت أقدم أوراق ترشيحي ، وأنا أحسب ألف حساب للمواجهة التي ستكون بيني وبين كمال حسين .

واذا بالمواجهة تحدث أسرع مما توقعت !

ذهبت أسهر في بيت صديق لي في شارع النيل . وطبعا كنت قد تركت عنوانه ورقم تليفونه في الرئاسة كالعادة .. حتى اذا طلبني الرئيس أمكن ابلاغي .

ودق فعلا جرس التليفون في بيت هذا الصديق . ولكن الذي طلبني لم يكن الرئيس .. وانما كمال الدين حسين !

عرف مكاني من الرئاسة .. وطلبني .

وبدأ بسؤال القاه بترفع شديد :

ــ ايه حكاية الجوابات دي اللي بتبعتها لي ومكتوب عليها رياسة الجمهورية ؟

قلت :

ـ انت نسيت انى مدير مكتب الرئيس والظروف عندنا مكتوب عليها كده ؟ أنا ما قلتش لعبد الناصر انت بتعمل ايه فى الجوابات دى عشـــان ما تزعلوش من بعض •••• بس كان مفروض تشكرنا لاننا بنبعث لك شكاوى الناس •• عشان تعرف أى حاجة مش مضبوطة عندك •

لكن الكلام فى هذا الموضوع لم يكن الا مقدمة للوصول الى الهدف الحقيقى للحديث •

وقد طرقه كمال حسين أيضا بنفس الترفع والعنجهية :

ـ وايه بأه يا سيدى حكاية ترشيحك دى ؟ مين سمح لك تقول للناس أنك مرشح عبد الناصر ؟

فأجبت :

ـ أنا لم أقـــل هـــذا الكلام • لا لأنه ليس من حقى • ولكن لأن عبد الناصر علمنا ان الدعاية المباشرة لا تفيد • ان مجرد ترشيح نفسى أمام رجل يقول للناس أنه مدرس عبد الناصر يجعل الجميع يعرفون أن الذى دفعنى للترشيح هو عبد الناصر نفسه • فمن غيره يجرؤ على أن يتحدى مدرس الزعيم ؟ •• ان الناس أذكياء • وقد آن ان تفهموا ذلك •

وصرخ كمال حسين :

ـ انت بتكلمنى ازاى بالشكل ده ؟

قلت :

ـ أصلك مش هنا خالص • لا عارف ان جواباتنا مكتوب عليها رياسة الجمهورية ، ولا عارف أنى باشتغل مع الرئيس ، ولا عارف أنى لا يمكن ارشح نفسى الا بطلبه •

ثم اضفت :

ـ اسمع ، أنا فعلا مرشح عبد الناصر ، ولى الحق أقول هذا ، وأنا لم أكن أريد أن اتقدم الى انتخابات تشرف انت عليها ، ولكنه ارغمنى ارغامه

وبالأمر ، اذا كان عندك كلام روح قوله لعبد الناصر ، ولا تكلمني في هذه الموضوعات حرصا على الاحترام بيننا . وتصبح على خير ... و

ووضعت السماعة .

وفزت بالدائرة رغم أنف كمال حسين .

وعدت الى القاهرة ليستقبلني عبد الناصر بالحضن ، ويقبلني ، ويقول لي :

ـ انا كنت مخضوض عليك جدا !

وسرتني هذه الكلمة . فقد فهمت منها ان عبد الناصر كان واعيا بمدى النفوذ الذي بدأ كمال حسين يمارسه لحسابه ... ولو ضد مرشح وقع عليه اختيار عبد الناصر .

بداية النهاية :

وكانت نية عبد الناصر في ذلك الوقت ان يصدر قانونا يجعل رئيس الاتحاد القومي المنتخب في كل محافظة يتولى منصب المحافظ . وكان يعتبر هذا خطوة ديمقراطية ضرورية .. حتى يحكم كل محافظة رجل وقع عليه اختيار أهلها .

ولو تم هذا لكانت مصر تتمتع الآن بحكم محلي حقيقي وفعال .

ولكن القانون الجديد قتل قبل ان يولد ، وكان الذي قتله نفس رفاق عبد الناصر الذين يزعمون اليوم أنهم كانوا أبطال الديمقراطية في عهده ، وأنهم تعرضوا للاضطهاد بسبب نزعته الديكتاتورية !

قالوا ـ في مناقشات طويلة ـ أنه من الخطر ان يتولى أمر المحافظة أحد أبنائها .. لأنه سيميل الى محاباة عائلته ضد العائلات المعادية . وسيؤدي هذا الى حزازات وثارات قد تدفع الأهالي الى رفع السلاح ضد بعضهم البعض .

وتمسك أصحاب هذا الرأي بوجهة نظرهم . فلم يستطع عبد الناصر (الديكتاتور !) أن يفرض رأيه .

أما كمال حسين ، فقد أبت الظروف الا أن توقعني معه في مأزق آخر .

كان معظم رجاله قد نجحوا . وبدأ يقوم بجولة فى الأقاليم ، على سبيل المظاهرة السياسية الشخصية . وقادته الجولة بالطبع الى دمنهور .

وكان يجب أن ألقى كلمة فى الاحتفال .

ومازلت إحتفظ بنسخة من الكلمة ، التى قلت فيها بايجاز :

سيادة المشرف العام على الاتحاد القومى : ان سعادتنا بزيارتكم لنا لايعادلها الاعرفاننا العميق للدوافع التى حدت بكم الى القيادة بهذه الجولات الموفقة فى انحاء الأقليم الجنوبى .

اننا نعرف أن هناك رجلا يسهر فى القاهرة والناس نيام ، يرعى مصالح الصغير ويحمى حق الضعيف ، ويحرص على الحق حيث كان ، ويوفره لصاحب الحق بكل سبيل . نعرف أن فى القاهرة زعيما لا يكتفى من أمر شعبه بما يرفع اليه كل صباح من التقارير ، وانما هو حريص على ان يعرف كل فرد من المواطنين ان رئيس الجمهورية معه ، وان الذين يعز عليهم أن يصلوا الى رئيس الجمهورية لا يلبثون ان يجدوا رئيس الجمهورية برسله المباشرين أمامهم ، يسمعون منهم ما عندهم . وينقلون عنهم ما يريدون لقائد البلاد ان يعرفه من أمورهم .

اننا يا سيادة المشرف العام على الاتحاد القومى نريد ان نحملك أمانة قبل ان نحملك رسالة ، أمانة ان تنقل اليه ان شعب هذه المديرية يعرف تمام المعرفة ويدرك كل الادراك ما يفعله جمال عبد النـاصر للوطن ، يعرف سهره ، يعرف رأيه ، يعرف جهده ، يعرف أخلاصه ، يعرف تفانيه . هذه هى الأمانة .

أما الرسالة فهى عهدنا اليه بأننا سنكون دائما معه . وسنلبى نداءه فى أى وقت يشاء ، وسنحارب بقيادته كافة المعارك التى يخوضها ، لأننا نعلم أنه يخوضها من أجلنا .

ولم يظهر وقع هذا الكلام على ملامح كمال حسين .

ولكنه فيما بعد قال لى بلهجة ذات مغزى :

ـ ما كنتش عارف أنك بليغ بالشكل ده !

ومر الموقف بسلام .

ولكن الايام كانت تخبىء لنا موقفا آخر ، كان بداية النهاية لمركز القوة الذى سعى الى تشكيله كمال حسين .

وشاءت الظروف ان تحشرنى فيه رغم ارادتى .

كان ذلك عام ١٩٦١ .

وكان محصول القطن قد أصيب بكارثة بسبب الدودة . وجاء المحصول سبتمبر (شهر افتتاح المدارس) اسوأ من أى محصول سابق .

وبدأ الذين أصيبوا بالكارثة يشكون من أنه مطلوب منهم برغم ذلك دفع مصروفات المدارس ... وفى نفس الشهر .

ونقلت الشكوى لعبد الناصر ، فقال لى : اتصل بكمال حسين وقل له يخفض المصروفات الى أقل حد ممكن .

وذهبت أبلغ كمال حسين . فاذا به يركب رأسه . ويعتبر مجرد تكليفى بتبليغ الرسالة عملا عدائيا .. ويرفض أى تفاهم .

وعدت الى جمال عبد الناصر بخفى حنين . فاذا به ، وبعد ان يطلب تخفيض المصروفات يأمر بالغائها تماما !

كان قد قرأ التقارير عن كارثة القطن وآثارها على نطاق البلاد ، فأدرك ضرورة أصدار هذا القرار . وأدرك أيضا الى أى حد يمثل كمال حسين — بعناده و « قصر النظر » السياسى — ضررا كبيرا .

وكانت هذه بداية النهاية لاعجاب عبد الناصر به . ذلك الاعجاب الذى جعله يسلم اليه من السلطات ما دفعه الى ان يشكل مركز قوة ... أو على الأقل يحاول .

وهكذا انتهت قصة مركز كمال حسين .

ولكن لكى تبدأ قصة المركز الجديد ، والأقوى : بقيادة المشير عبد الحكيم عامر !

تعليق : الجبار يقصد السيد زكريا محى الدين بمن رمز اليه باسم «ب» فى هذا الفصل ٠

ولا ندرى لماذا سـمح أولا بنشر اسمه ، ثم عاد فرفعه٠ثم ان الأمانة تقتضى أن تثبت هنا أنه حدث تعديل فى الأسلوب الذى كتبنا به أصـلا قصة الجبار مع السيد كمال الدين حسين ٠ اذ اننا كنـا كتبناها بطريقة أكثر لياقة فى حق كمال الدين حسين ، ثم فوجئنا فى النشر بكلمـات تضاف فى وصفه ، تخرج امانتنـا فى النقل عن الجبار الى نطاق المهاترة ٠٠٠

الفصل التاسع

* أسرار العلاقات بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر .
* المشير لم يعرف أبدا وردة الجزائرية .
* الأزمات الثلاث التى قضت على صداقة عمر .

يستحيل فى عالم السياسة ان تدوم الصداقات !

لكن الصداقة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر كانت تبدو شذوذا على القاعدة . فهى قد ثبتت أمام أكثر من عاصفة كانت جديرة بأن تقتلعها من جذورها . وفى قمة الخلاف والصراعات التى نشبت بينهما ، ظلت الرابطة العاطفية بينهما تغالب الأمواج العاصفة حتى المشهد الأخير !

وقد بلغ من عمق هذه الرابطة ، وثباتها ، أن البعض اعتبروها لغزا يستحق التفسير .

فهل كانت لغزا حقا ؟

أم أن اللغز كان انفصامها ، والمشهد المأساوى الأخير فى قصتها .

هنا نترك محمود الجيار يتكلم ...

لم يكن عبد الحكيم عامر مجرد صديق لعبد الناصر •

كان ما بينهما رابطة أقوى من الصداقة • لا يشك أحدهما لحى الآخر ، ولا يصدق فيه وشاية ، ولا يغار منه أو ينافسه •

وكان عبد الحكيم هو الوحيد الذى يحتد معه عبد الناصر دون حـ ودون تحفظ ولا يخشى أن يؤدى الخلاف الى قطيعة • وكان هو ا أيضا • الذى يشكو اليه متاعبه مع زملائه ولكنه لم يكن يشكوه أبـ هؤلاء الزملاء !

فماذا كان السر وراء هذه العلاقة ؟

ان المكانة الخاصة لعبد الحكيم عامر فى قلب عبد الناصر كانت سـ فى كثير من المتاعب مع بعض أعضاء مجلس الثورة الآخرين •• وأدا تنمية العداوة بينهم وبين عبد الحكيم •• وبسببها تفاقمت بمشاكل وخـ لا حصر لها •

وبعض هذه المشاكل والخلافات كان يمكن أن يجنبها عبد النا أنه جعل العلاقة بعبد الحكيم عامر فى مستوى علاقته بكمال حسين او البغـ أو زكريا محيى الدين •

فلماذا لم يفعل ؟

ببساطة : لأن عبد الحكيم عامر كان مختلفا !

كان يفهم الصداقة على طريقة الصعايدة ، وبمنطق الحديث الشر « انصر اخاك ظالما أو مظلوما » •

هذا سبب •

والسبب الثانى ان دوره فى صنع الثورة • وفى خلق تشكيل الـ الاحرار ، كان أضخم دور بعد عبد الناصر •

انت تتفسح • وهو يعاقب !

بدأت علاقة الصديقين فى أول حياتهما العسكرية • فى منقباد • ثم فى جبل الأولياء « بالسودان » ، ثم فى حرب ١٩٤٨ بفلسطين • ولم تنقطع العلاقة أبدا •

وطول هذا الوقت كان كل منهما يعتبر بيت الآخر بيته • وأولاد الآخر أولاده •

وكان عبد الحكيم عامر رجلا شهما الى أقصى الحدود • ولا يملك الذى يعرفه الا أن يحبه • وقد كانت شهامته نقطة الضعف التى اتاحت لبعض العاملين معه • فيما بعد ، ان يشكلوا مركز قوة بحمايته •• كما سنرى •

وكان عامر محبوبا فى الجيش ، وصاحب صلات لا حد لاتساعها برغم صغر سنه •

كان مسئولا عن شئون الضباط فى سلاح المشاه • ومن هذا الموقع كسب حب الكثيرين •• لرجولته وحسن تصرفه •

وقد حدث بعد حرب فلسطين ان بدأت عملية تشتيت للضباط ، كان نصيبى منها النقل الى السودان مع كتيبة أخرى لا اتبعها ، فذهبت اشكو الى عبد الحكيم عامر • كمسئول عن شئون الضباط •

واذا بعبد الحكيم عامر ، الذى كنت اراه يومها لأول مرة • يقول لى :

ـ ماذا يضايقك ؟ ستتمتع بسياحة الى السودان • وهناك سيرفضون بقاءك لانك لست تابعا لهم ، فتعود بعد أيام ويعاقب الرجل الذى ارسلك •

ثم ابتسم وقال :

ـ انت تتفسح • وهو يعاقب • وحشه دى ؟

ففرحت بالفكرة •• بعد ان بدأت أنظر الى عملية نقلى على هذا الضوء الجديد •

وبعد أن كنت مصمما على القتال حتى النهاية لايقاف هذا النقل • وجدت نفسى استعجل السفر !

كان هذا أسلوب عبد الحكيم عامر .

ومثل هذا الأسلوب ، عند رجل يتولى شئون الضباط ، يمكنه بالطبع من كسب شعبية خاصة بينهم .

ومن هنا استطاع ان يضم الى تنظيم الضباط الاحرار عددا من الضباط أكثر من الذين ضمهم الأعضاء الآخرين . وكان التنظيم فى الواقع من صنعه هو وجمال عبد الناصر أولا .. مع مساهمات محدودة من الآخرين .

وقد ترتب على هذه الحقائق نتائج مؤسفة بمجرد نجاح الثورة .

فالأعضاء الآخرون فى قيادة الضباط الاحرار لم يكن لهم انصار بقدر ما كان لعبد الحكيم عامر . وكانت أحداث الثورة نفسها قد كشفت عن ذلك بما لا يدع مجالا للشك .

فسلاح الطيران مثلا ، الذى كان يمثله عبد اللطيف بغدادى ، لم يستطع ان يسيطر على الموقف ليلة الثورة سيطرة تامة .. الى حد أن ياور الملك ـ الطيار عاكف ـ دخل أحدى القواعد التى كان البغدادى مكلفا بها ، وركب طائرته ، وسافر الى الاسكندرية دون أن يتصدى لها البغدادى ومجموعته .

بل أن المجموعة لم تستطع ليلة الثورة ان تقبض على اللواء حقى هارون ، أحد كبار القادة فى سلاح الطيران ، فاستنجدت بكمال رفعت ، الذى اقتحم بيته ، وخرج اللواء هاربا فى الطريق ، فجرى وراءه كمال رفعت حتى اعتقله بعد عراك مرير .

أما سلاح المدفعية ، الذى كان يمثله كمال حسين . فقد كان ضباطه أول أعضاء فى التنظيم يرفضون مندوبيهم فى القيادة بعد نجاح الثورة !

كشفت هذه الحوادث عن ضعف موقف هؤلاء القادة وقلة انصارهم من ضباط الصف الثانى . فكانت النتيجة أنهم أصبحوا ضد الصف الثانى كله !

اعتبروه من أتباع عامر ، وشرعوا يبعدونه بمختلف الطرق ، ويضمون

الى التنظيم ـ بعد نجاح الثورة ـ أسماء ضباط يزعمون أنهم كانوا فى الخلايا التى يشرفون عليها . وأصبحت المسألة سباقا على ضم أى اسماء .. وفى ذهن كل منهم ان « يكبر الكوم بتاعه » !

لكن عبد الناصر كان بالطبع يعلم ..لانه كان صانع التنظيم من البداية. هو وعبد الحكيم عامر .

وعندما بدأ الآخرون يوقعون بينه وبين عبد الحكيم . كان يعرف السبب أيضا ، ولم يكن من السذاجة بحيث ينخدع .

ويحسن هنا ان نضيف الى رصيد عبد الحكيم قصة الدور الذى قام به فى عملية اقتحام القيادة ليلة الثورة .

فقد بلغنى ان الرائد ، حسين يوسف صديق قد كتب الى روزاليوسف ينكر هذا الدور ، ويقول أن اقتحام القيادة تم بمعرفة والده وحده .. مع قواته بالطبع .

وأنا أقرر أنا هذا صحيح .

ولكنى أؤكد فى نفس الوقت القصة التى ذكرتها فيما مضى من هذه الذكريات . فقد قبضت قوات يوسف صديق على عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى الشارع ، قبل اقتحام القيادة . ثم أفرجت عنهما عندما عرفت شخصيتهما . أى أن عبد الحكيم كان حرا عندما بدأ الاقتحام .

وقد قاد الاقتحام يوسف صديق . هذا صحيح .

ولكن عبد الحكيم عامر لاحظ أثناء عملية الاقتحام مدفع رشاش على سطح مبنى القيادة ، يطلق نيرانه على قوات يوسف صديق . فالتف من وراء المبنى . وصعد الى السطح . واسكت المدفع .

وهذه حقيقة يجب أن تذكر . وهى لا تنقص من قدر يوسف صديق . الذى كنت اعتز بصداقته ، والذى عشت طول عمرى أجله . ولكنها تضيف الى رصيد عبد الحكيم عامر فصلا لا يجوز انكاره .

نجيب كان البداية :

على أن الغيرة من عبد الحكيم عامر بدأت فى الواقع قبل الثورة ، وقبل ان تتضح القوة بالنسبية لكل من أعضاء القيادة بين الضباط •

بدأت بالتحديد بسبب أختيار محمد نجيب رئيسا يعلنون الثورة باسمه •

كان عبد الناصر قد اقنع زملاءه بضرورة اختيار شخصية عسكرية كبيرة تعلن أن الثورة بأسمها •• حتى يكون أكثر اقناعا للجماهير •

وعندما بدأ اقتراح الأسماء •• كان محمد نجيب مرشح عبد الحكيم عامر •• بينما رشح الباقون اللواء فؤاد صادق •

وكانت مؤهلات فؤاد صادق هى شهرته فى حرب فلسطين أيام تولى القيادة بعد اللواء المواوى •

ولكن مؤهلات نجيب كانت ارجح : فهو مثل فؤاد صادق أبلى بلاء حسنا فى حرب فلسطين • ولكن زاد عليه أنه كسب شعبية فى الجيش عندما تحدى مرشح الملك فى انتخابات نادى الضباط عام ١٩٥١ •

ثم كان هناك « نصر شخصى » آخر يجعل نجيب مرشحا أفضل • فقد كان نجيب قائدا لسلاح الحدود ، ونقلوه الى المشاه لكى يخلو مكانه لرجل الملك : حسين سرى عامر ، وهذا الجرح الشخصى عند نجيب يجعله أكثر استعدادا للاستجابة الى من يدعوه للثورة على الملك •

كانت الاعتبارات التى رجحت كفة نجيب ، كما نرى • موضوعية جدا • وتنطوى على كثير من الحكمة •

ولكن الفريق الآخر اعتبر اختياره نصرا شخصيا لعبد الحكيم عامر ، وهزيمة لهم • وتصوروا أن عبد الناصر قد مال الى هذا الاختيار مجاملة لصديقه •

ثم لم يلبث هذا الأحساس ان تفاقم بعد الثورة •

فقد عرف نجيب ان الذى رشحه كان عبد الحكيم عامر • فارتاح اليه •

ووافق بسرور على أن يكون هو بالذات مدير مكتبه بعد تكليف نجيب برئاسة الوزارة •

ثم نشأت الحاجة الى تعيين قائد عام للجيش • فلم يكن ممكنا يستمر كل سلاح يخضع لقادته ، منفصلا عن غيره من الأسلحة •• وكان المطلوب ان يكون القائد العام الجديد رجلا على وفاق مع الرئيس نجيب •• حتى لا ينشأ نزاع بينه وبين رجال الثورة •

وكان عبد الحكيم عامر بالطبع أفضل من يتوافر فيه هذا الشرط •

وهكذا قفزت رتبته ، وعين قائدا عاما ، وأصبحت الأسلحة كلها تخضع له •• بعد ان كان الطيران يخضع للبغدادى والمدفعية لكمال حسين الخ •

ومن يومها لم تعد عواطف هذه الجماعة صافية نحو عامر • ولم تعد تمضى فرصة دون ان يحاولوا استغلالها للايقاع بينه وبين عبد الناصر •

وما كان أكثر الفرص !

الجرح الأول :

كانت الفرصة الأولى أيام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، فى تلك الأيام نشأت أول سحابة حقيقية فى سماء العلاقة بين عبد الناصر وبين المشير •

وكان سببها حادثة عادية ، عابرة ، جرت أثناء المعركة • ولم تكن تبدو وقتها ذات أهمية خاصة •

كان التدخل البريطانى الفرنسى قد وضحت ابعاده • وصدرت الأوامر للجيش بالأنسحاب الى غرب القناة ، لينضم الى الشعب في مواجهة الغزو

وفى نفس الوقت صدرت الأوامر بتوزيع السلاح على الشعب فى منطقة القناة •••• وفى بورسعيد بالذات • وزحفت الى بورسعيد قطار مشحون بالسلاح والذخيرة ••• لتوزيعها على المواطنين •

واذا بكارثة تحدث !

هجم الأهالى على القطار ، وجردوه فى لحظات من حمولته ، وانطلقوا الى المواقع التى ينتظرون هجوم العدو منها •

ولكن السلاح لم يكن موحدا • وكذلك الذخيرة • وكانت النتيجة ان الذى حمل سلاحا روسيا حمل معه ذخيرة انجليزية ، والذى حمل سلاحا انجليزيا حمل معه ذخيرة روسية •

أى أنه لم يعد السلاح ينفع ، ولا الذخيرة •

وجاءت التقارير باللاسلكى تشرح لعبد الناصر هذه الكارثة ، فقرر على الفور ان يعالجها بالحل الوحيد الممكن : وهو أرسال سلاح وذخيرة جديدة •• موحدة الطراز •

وكان عبد الناصر قد قرر وقتها ان يترك القاهرة ويتجه الى بور سعيد ، ويخوض معركة المقاومة الشعبية مع أهلها •

وبينما نحن نستعد لهذه الرحلة ، اتصل بعبد الحكيم عامر ، وطلب منه ان يزود أهالى بور سعيد فورا بالاسلحة والذخيرة ••• بدلا من تلك التى لم يعد لها جدوى •

واذا بعبد الحكيم عامر يرد قائلا :

ــ هذا مستحيل !

ــ لماذا ؟

ــ لأن الطريق الى بور سعيد لم يعد مفتوحا • ضربه العدو ولم يعد صالحا للمرور •

وضع عبد الناصر السماعة دون تعليق •

ولكن هذه الحادثة ترسبت فى نفسه ، مختلطة بمرارة لاحد لها •

كان يتوقع من عامر ان يقول له أنه سيحاول • انه سيجد طريقة لايصال السلاح • أنه سيفعل المستحيل • لا أن يخذله هكذا •

وأحس عبد الناصر بهذا الخذلان كما لو كان طعنة شخصية له ، من

أقرب اصدقائه وكادت تطفر الدموع من عينيه وهو يروى لى ما حدث ٠

لكن الأهم من هذا انه ، بعد ان أفاق من الصدمة ، بدأ يناقش نفسه حول جدارة عبد الحكيم عامر وكفاءته كقائد للجيش ٠

ولم يلبث عبد الحكيم عامر ان أحس بهذا ٠

فبعد انتهاء المعركة ، وبعد النصر السياسى الخارق الذى انتهى بانسحاب المعتدين جميعا ، قدم عبد الحكيم عامر استقالته !

لم يقدمها لأنه هزم ٠ فلم يكن مطلوبا منـــه ان ينتصر فى مواجهة جيوش بريطانيا وفرنسا واسرائيل مجتمعة ٠ وانما قدمها لأنه شعر ، من بعض كلمات عبد الناصر ، أنه لم يعد يثق به كمـــا كان ٠ ولم يكن فى استطاعته ان يتحمل هذا الأحساس ٠

وقد سارع عبد الناصر وقتها وأصلح ما بينه وبين المشير ٠ وتم سحب الاستقالة ونجت العلاقة بينهما من هذه العاصفة ٠

فبالنسبة لعبد الناصر كان المشير فى النهاية زميله فى صنع الثورة ، وساعده الأول فى البناء الذى يدافعان عنه ٠ وبالنسبة للمشير كان عبد الناصر قائد هذه الثورة ، ومهندس ذلك البناء ٠

لكن القصة كانت قد تركت جرحا فى قلب كل منهما ، لا يشعران به ، ولكنه موجود ٠

كارثة الانفصـــــال :

ثم جاءت الأزمة الثانية ، فى كارثة الانفصال السورى ٠

كانت الكارثة فشلا واضحا ، ومؤلما ، لعبد الحكيم عامر ٠

فهو أولا كانت تحت يده التقارير التى تحذر من وقوع انقلاب فى سوريا ، وتشرح ابعاده ، وتحدد الاشخاص الذين يدبرون القيام به ٠

وعندما وقع الانقلاب ، والمشير فى دمشق ، كان يستطيع او يستعين

بالوزراء العسكريين في سوريا •• ويوجههم الى وحداتهم التى كانوا قادة لها ، وأصحاب نفوذ فيها ، ليحاصر بها قوات الانقلاب • ولكنه بدلا من ذلك اتجه الى مقر القيادة •• لينفع فى اسر قادة الانقلاب •

وعاد عبد الحكيم عامر من دمشـــق مهزوما ، جريح الكرامة ليجـد عبد الناصر يعنفه ويضاعف من آلام جرحه •

وهكذا •• للمرة الثانية أحس عبد الحكيم بأنه فقد ثقة صديق العمر •

ولكنه هذه المرة لم يقدم استقالته •

فقد وجد من يقدم اليه ـ فى لحظات هزيمته هذه ـ شماعة يعلق عليها كل المسئولية •

وكانت الشماعة جمال عبد الناصر !

قالوا لعبد الحكيم عامر ان عبد الناصر هو الذى حفر له حفرة العدوان الثلاثى ، ثم حفرة الانفصال السورى !

وفسروا له المسألة كلها بأن عبد الناصر يخشاه ، ويهمه أن « يحرقه » أمام الرأى العام حتى ينفرد وحده بالزعامة وحب الجماهير •• وهو لهذا يختار له المهام الصعبة ! قيادة الجيش فى مواجهة ثلاث دول ، ثم حكم سوريا عشية انقلاب كان يعرف أنه مدبر •

وطبيعى ان يميل الانســـان الى تصـديق ما يرفع العبء عنه ويلقى مسئولية أخطائه على غيره ، وعبد الحكيم عامر فى النهاية انسان •

ولكن •• من الذين همسوا فى اذن عامر بهذا التفسير ؟

أنهم فريقان :

الأول ـ نفس الذين كرهوا علاقته الوثيقة بعبد الناصر ، وسعوا دائما الى الايقاع بينهما •

والثانى ، رجاله الذين عملوا تحت أمرته ، وفى مكتبه ، والذين كانوا يستفيدون من موقعه المتميز فى الدولة •

وهذا الفريق الثانى كان الأخطر •

أكذوبة وردة :

لا يعنى هذا ان الفريق الأول لم يكن خطرا •

فالواقع ان هذا الفريق عمل كل ما فى وسعه للايقاع بين الرجلين ، ويكفى أن واحدا منه كان وراء الاشاعة التى سرت فى وقت من الاوقات فى مصر كلها : اشــاعة وجود عــلاقة غرامية بين المشــير وبين الفنانة وردة الجزائرية !

ان هذه العلاقة التى تأكدت لدى الرأى العام الى حد شيوع تفاصيل دقيقة عنها ،ونكت تدور حولها •••لم يكن لها أصلا وجود، ومع ذلك أكدت بعض التقارير وجودها • وساهمت فى ذلك أجهزة كان يديرها أحد الحاقدين على الصداقة بين المشير وبين عبد الناصر •

وقد طلب المشير ايامها من عبد الناصر أن يبعد الفنانة الجزائرية عن مصر ، قطعا لهذه الاشاعة •• ولكن عبد الناصر قال ان إبعادها هو الذى سيؤكد الاشاعة وتمسك بأن تبقى !

الى هذا الحد كان خطر الفريق الأول من أعداء الصداقة بين عامر وعبد الناصر •

ولكن الفريق الثانى مع هذا كان أخطر •

لأن سلاحه لم يكن التقارير الكاذبة ، أو الاشاعات وأنما كان : افساد عبد الحكيم عامر !

انتهز هذا الفريق من موظفى عبد الحكيم أزمته النفسية بعد الانفصال السورى ، وبدأوا يعملون ـ ظاهريا ـ على اعادة الثقة اليه •• بوسـائل تقطع ما بينه وبين عبد الناصر ••

فى كل أسلحة الجيش رفعوا صورته الى جوار صورة عبد الناصر •• ودون استئذانه ••

وأذكر أنني وقتها ذهبت أزوره .. ففوجئت بصورته على الجدار في غرفة مدير مكتبه بجوار صورة عبد الناصر .. فلما قابلته اكتشفت أنه لا يعرف ذلك . وقال أنه سيأمر فورا بعدم تعليق أية صورة غير صورة عبد الناصر .

ولا أدرى هل أمر أم لا ، ولكن الصورة بقيت فى كل أسلحة الجيش على أية حال !

وفى نفس الوقت سعى هذا الفريق من موظفى عامر الى استدراجه الى سهرات ذات طابع خاص .. تسىء اليه .. وتهدمه من الداخل .. ويحرضه أثناء ذلك ضد عبد الناصر .

وبينما كانت مشكلة الفريق الأول تسوية حسابات قديمة مع عبد الحكيم عامر .. أو الغيرة منه .. كانت مشكلة الفريق الثانى أن تستحوذ عليه ، ليستفيد من وراء ظهره . وبحمايته .

وهكذا نشأ ما يسمى بمركز قوة المشير عامر .

لم يكن هو فى الحقيقة صاحبه . وانما الصغار المحتمون به . والمستغلون لشهامته وكرامته الجريحة .

وجاء وقت أصبح فيه مكتب المشير يتصرف كما يحلو له . ويحلم بحكم مصر كلها بأسمه . ولو استطاع لقام بانقلاب ينتزع فيه السلطة من عبد الناصر وعامر معا !

واخيرا .. جاء المشهد الختامى : بعد حرب يونيو المشئومة .

كانت هذه الحرب الضربة الثالثة والأخيرة . لكرامة عبد الحكيم عامر .

وبدأ رجال عامر . برغم الكارثة . أو ربما انتهازا لفرصتها يستعدون للانقلاب الذى يحلمون به .

وكان المشير هنا ضحية أيضا .

ضحية شمس بدران من ناحية . وعلى صبرى من ناحية أخرى .

وكان لى دور ــ لا أنساه ــ فى هذه الخاتمة التعسة .. التى كلفت المشير حياته . وأورثت عبد الناصر هما لم يتخلص منه حتى يوم وفاته .

الفصل العاشر

* رجلان وراء نهاية المشير عامر .

* من الذى كان يريد ان يأكلها وحده .

* عبد الحكيم عامر قال بعد هزيمة ٥ يونيو : كان الله فى عون عبدالناصر .

كانت نهاية المشير عبد الحكيم عامر مثل نهاية هاملت : مأساة صنعها غيره ، وساعدهم هو على ان يحفروا بها قبره .

صحيح انه انتحر باختياره .

ولكن الذى قاده الى الانتحار رجلان : أحدهما مهد للمأزق الذى وقع فيه . والثانى جعل مهربه الوحيد منه أن يقتل نفسه .

وفيما يلى يروى محمود الجيار ما شهد بنفسه من دخائل هذه القصة التى يصفها هو نفسه بأنها : تعسة .

ليس صحيحا ان عبد الحكيم عامر قد حاول ، أو فكر فى أى وقت ، بأن يقوم بانقلاب على جمال عبد الناصر .

لم تكن العلاقة بينهما تسمح بمجرد التفكير فى شىء كهذا ، وكان أقصى ما يفعل المشير حين يختلف مع عبد الناصر هو ان يقاطعه ويسافر الى مكان لا يعرفه أحد ، وكان عبد الناصر عندئذ يبحث عنه حتى يعرف مكانه ، ثم يرسلنى لأقنعه بالعودة .... وتتم تسوية الخلاف .

حدث هذا ، مثلا ، بعد كارثة الانفصال السورى .

وقتها كان عبد الناصر غاضبا من المشير ، لأنه لم يحسن التصرف فى مواجهة الانقلاب ، وكان المشير من جانبه يشعر بذلك ، ويعانى حساسية خاصة كلما طرق الموضوع .

ووقتها تقرر تشكيل « مجلس للرئاسة » .. يتولى القيادة السياسية العليا فى البلاد ، ولا يتقرر شىء الا بأمره . وكان المشير عضوا فى هذا المجلس بالطبع ، مع غيره من قادة الثورة .

وفوجىء المشير بالمجلس يقترح قانونا يشل يديه عن التصرف فى أهم شئون القوات المسلحة : وهو تعيين القادة .. ابتداء من قائد اللواء وانتهاء الى قائد الكتيبة !

وفى هذا الاجتماع لم يكن عبد الناصر موجودا .

وأحس المشير بأن هذا القانون يعنى عزله عمليا عن منصبه ، وانه بمثابة اعلان بأنه لا يصلح قائدا عاما .

وهو اعلان لم يكن مستعدا ان يقبله فى ذلك الوقت ، وجرح هزيمته فى سوريا لم يندمل بعد ، وهو محتاج الى ما يعيد ثقته فى نفسه .

وكتب المشير استقالته احتجاجا ، وانقطع عن الذهاب الى عمله ، واختفى .

وكالعادة استدعانى عبد الناصر ، وكلفنى بأن ابحث عن المشير بأى ثمن ، وأقنعه بخطأ هذه الاستقالة ، وكالعادة بدأت ابحث بالذهاب الى بيته .

وقالوا لى فى البيت أنه غير موجود .

فقلت لهم : زى بعضه .. بيت المشير بيتى .

ودخلت .

وصعدت ببساطة الى غرفته ، فوجدته . ووجدت معه كمال حسين .

وفوجئت بكمال حسين يوغر صدره ، وينصحه بألا يعدل عن استقالته، ويقول له : ان عبد الناصر يريد أن « يحرقك » ، لانك الوحيد الخطر عليه ، والمنافس له فى قلوب الناس !

فوجئت بهذا ، لأن كمال حسين كان من المتحمسين للقانون الذى استقال بسببه عامر .

وخرج كمال حسين بعد لحظات من دخولى ، لكى لا يستمر الحديث أمامى فانتهزت الفرصة لأقول للمشير .

ـ عاوز أقول لك حاجة يا فندم .. ان أساس خصومة الجميع لك هو مكانتك عند عبد الناصر . وهذه المكانة يجب ان تحافظ عليها ، لأن خطتهم هى الاستيلاء على السلطة عن طريق التفريق بينكما .

وظللت أحاول تهدئة المشير واقناعه ، حتى وعدنى بأنه سيتصل فورا بالرئيس ويقابله .

ولكن « فورا » هذه لم تتحقق .

فقد عدت الى بيت الرئيس لأعلم ان المشير لم يتصل . وعند ما رفعت سماعة التليفون وطلبته لأسأله عن سبب تأخيره ، أقسم لى أهل البيت أن المشير قد خرج والى مكان لا يعرفونه !

وكان أهل البيت صادقين .

فقد خرج المشير فعلا ، وسافر الى مرسى مطروح ، ومضى يوم كامل قبل ان تهتدى أجهزة الأمن الى مكانه .

وفى اليوم التالى أوفد اليه عبد الناصر كلا من عباس رضوان وصلاح نصر وشمس بدران ليبلغوه ـ على لسان الرئيس ـ ان القانون المقترح قد صرف النظر عنه •

وعاد عبد الحكيم عامر •

وجاء دور كمال حسين وعبد اللطيف البغدادى وغيرهما فى الغضب ومقاطعة عبد الناصر •

أثناء هذه الأزمة كان بعض الضباط قد عبروا عن تمسكهم بعبد الحكيم عامر ، وقاموا بما يشبه المظاهرة المعنوية بأسمه •

ومن هنا نشأت الفكرة الشائعة التى تقول ان عبد الحكيم عامر قد عاد بالقوة ، أو « بانقلاب سلمى » على عبد الناصر •

ولكن هذا غير صحيح على الاطلاق ، ولم يكن عامر أصلا على اتصال بما فعل الضباط ، ولو كان يعلم لمنعهم من التعبير عن أى احتجاج •

لكن رجلا آخر كان يهمه ان تترسخ هذه الفكرة : فكرة ان المشير عاد بانقلاب سلمى ، وأنه أصبح الحاكم الحقيقى فى نظام أصبح عبد الناصر يمثل فيه دور الرمز ، أو الزعيم الذى يقود ولا يحكم !

هذا الرجل كان : شمس بدران ••

وشمس بدران كان أصلا من مجموعتى فى التنظيم • وكان معنا حمدى عبيد ، واسماعيل فريد ، وزغلول عبد الرحمن ، وكلنا كنا نتبع مجموعات عبد الحكيم عامر •

وكان شمس ينتمى الى كتيبة من اللواء السادس • ولم يكن فى هذا اللواء أحد من الضباط الأحرار فضمه عبد الناصر الى مجموعته لكى يوجهه الى تجنيد افراد من هذا اللواء •

ولكنه ، حتى ليلة الثورة ، لم يفلح فى تجنيد ضابط واحد !

واضطر عبد الناصر ليلة الثورة الى أن يغامر ويفاتح قائد اللواء بنفسه ، ويطلب منه الانضمام لعملية الاستيلاء على السلطة . وأمسك اللواء عبد الواحد عمار العصا من الوسط .. فوعد بألا يتحرك ضد الانقلاب ، وبأن ينضم اليه اذا نجح .

وفعلا لم يتحرك اللواء الا بعد ان تم اسـتيلاؤنا على مركز قيـادة القاهرة . وعندئذ خرج وانضم الينا ، ومعه شمس بدران !

ومن المؤكد ان شمس بدران كان يحلم من البداية بأن يركب موجة الثورة الى الحكم ، ويستولى عليه .

أحسست بهذا ، أول مرة ، بمجرد طرد الملك فى ٢٦ يوليو فما كادت تنتهى هذه العملية بنجاح ، ونعود الى القاهرة ، حتى فوجئت به يقول لى :

ـ هى ايه الحكاية ؟ هم خلاص اكلوها لوحدهم ؟

كان يقصد اعضاء مجلس الثورة .

وكان واضحا أنه يرى الثورة عملية نهب تمت بنجاح . وان الذين قاموا بها سيأكلون الثمار وحدهم دون أن يكون له نصيب .

ومن يومها فهمته ، ولم يعد صعبا على أن ادرك الهدف من وراء أى تصرف يقوم به .

أذكر ان عبد الناصر ، بعد نجاح الثورة ، بدأ ينظم اجتماعات للضباط الاحرار للاستماع الى آرائهم . وكان يعتبر هذه الاجتماعات بمثابة برلمان لهم .

واذا بشمس بدران يتخصص ، أثناء هذه الاجتماعات ، فى أثارة موضـوع واحد : هو وزارة الزراعة . متاعبها ، مفاسـدها ، عجزها ، تقصيرها .. الخ .

ولما كنت أعلم أن والده موظف فى وزارة الزراعة ، فقد وجدت

نفسى فى أحد الاجتماعات أطلب الكلمة ، وأقول لعبد الناصر :

ـ عندى اقتراح يا فندم • هذا ثالث اجتماع تتكلم فيه عن وزارة الزراعة • واختصارا لوقتنا اقترح ان نعين عم على بدران وزيرا للزراعة ونستريح •

وانفجر الحاضرون يضحكون •

ولم يعد ممكنا بعد مواصلة الاجتماع •

ومازلت اذكر حادثة أخرى • تلقى مزيدا من الضوء على شخصيته • وكان مسرحها بيت جمال عبد الناصر •

كان ذلك فى أوائل عهد الثورة • وكانت عادتى عندما يجتمع عبد الحكيم وعبد الناصر أن أجلس معهما قليلا ثم انسحب • أما شمس بدران ، الذى كان يحضر مع المشير ، فكان يستغل حرجهما ويبقى •••

واذات ليلة صممت على أن آخذه معى الى خارج الغرفة واذا به يفاتحنى فى مسألة غريبة •

قال لى :

ـ سمعت أنك سمحت لحرم عبد الناصر بركوب سيارته الحكومية • فهل هذا صحيح ؟

قلت :

ـ بأى حق تسألنى هذا السؤال ؟ هل نسيت نفسك ؟ أننى أولا أقدم منك رتبة وأنت ثانيا آخر من يتكلم •• لانك جئت الى هنا تركب سيارة « ميركورى » • ووالدتك تركب سيارة « ميركورى » أخرى فى الاسكندرية •

وارتفع صوتنا حتى فوجئنا بعبد الناصر أمامنا يسأل ما الحكاية •

قلت :

ـ ولا حاجة يا فندم •• أصل شمس نسى نفسه •• وكنت باحاول أفوقه !

لكن شمس بدران الذى وجد الطريق مسدودا من خلال تشكيلات الضباط الاحرار ، وجده مفتوحا من خلال مكتب عبد الحكيم عامر •

التصق بالرجل الصعيدى الطيب • ودخل مكتبه الى جنب مع عباس رضوان وصلاح نصر وتوفيق عبد الفتاح • وتفرغ فى المكتب لعمل واحد :

هو استخدام كلمة « مكتب المشير » سلاحا لتعيين من يشاء الضباط فيما يشاء من المناصب •• وبالذات فى المخابرات الحربية ، التى هى جهاز أمن الجيش •

كان همه فى هذه الفترة ان يعين فى المخابرات الحربية بعض الذين ينسجم معهم من أفراد دفعته بوجه خاص • وهذا بالضبط أسرع طريق الى الاستيلاء على الجيش نفسه ، وضمان ولائه له وحده •

لكنه فى نفس الوقت طريق خطر على وحدة الجيش •

واذكر اننى قلت هذا لعبد الناصر ، ولكن بعد فوات الأوان بعد ان كان شمس بدران قد عين فى منصب وزير الحربية •

عينه عبد الناصر بعد أن استفحل أمره • وصار الافضل ان يخرج الى الضوء ويتولى المسئولية بوضوح •• بدلا من أن يتولاها مختبئا وراء عبد الحكيم عامر •

وكنت مع عبد الناصر فى رحلة الى أفريقيا • وبعد اعباء اليوم الأول الشاق ، سألنى عبد الناصر وهو يستعد للنوم :

ـ ما تعليق الرأى العام على تعيين شمس بدران ؟

قلت :

ـ لم تصلنا بعد تعليقات •

قال :

ـ وما رأيك أنت •

قلت :

ـ والله يا فندم .. اذا كان هذا التعيين مكافأة له . فلا تعليق عندى . ولكن إذا كنت قد عينته لتضمن أمن الجيش ، فهو أخطر رجل على أمن الجيش .

واذا بعبد الناصر يقفز من فراشه صائحا :

ـ يخرب بيتك ! ازاى ؟

قلت :

ـ يا فندم .. أنا لاحظت أن شـــمس بدران عمال يجيب افراد دفعته ويسلمهم مسئوليات أمن الجيش ، وهذا خطر ، لأنه يخلق منهم تشكيلا يدين بالولاء له ، ويغضب الضباط من الدفعات الاخرى والاسلحة الأخرى . بل ان بعض افراد دفعته الذين لم يقع عليهم اختياره ، اصبحوا حاقدين أيضا .

ولكن شمس بدران كان قد تولى وزارة الحربية وانتهى الأمر .

وهو قد استفاد منها ، ومن موقعه السابق فى مكتب المشير ، لا لكى يقوم بانقلاب لصالح المشير .. ولكن ليقوم بانقلاب على المشير وعبد الناصر معا .

انقلاب هادىء ، صامت ، أبيض .. يحكم فى ظله هو وأعوانه ، ويكون المشير واجهة له أمام الجيش ، وعبد الناصر واجهة له أمام الشعب .

وكان اعتماد شمس بدران وأعوانه على ما يعرفون من خلق المشير ، وشهامته ، واصراره على حماية مرؤسيه ، فهذه السمات التى تعتبر ميزة فى أى رجل ، يمكن ان تكون ثغرة فى شخصيته .. اذا أجاد المرؤس النفاذ منها واستغلالها لصالحه وقد صاحبت هذا ، مع الأســف عملية أفســاد المشير ، وطلاء الجراح التى أصابته بسبب كارثة الانفصال بمراهم من السهرات المتواصلة ، وكلمات المديح المخدرة .. وغرق المشير فى طوفان

المتع التي يلجأ اليها الانسان عادة لنسيان آلامه • وبذلك لم يتيقظ لما يفعل شمس بدران •

وكان عبد الناصر يعرف هذا •

ولم يخطر بباله فى أى وقت أن مركز القوة الذى نشأ فى مكتب المشير من صنع المشير نفسه ، وانما كان يراه على حقيقته : مراكز يعمل على حساب المشير •

أو بتعبير آخر : مراكز وقع المشير في اسره •

وكان هذا أيضا رأى عبد الناصر بعد كارثة يونيو ١٩٦٧ عندما بدأت محاولة الانقلاب العسكرى الجادة على النظام •• تحت راية المشير !

ولو ان الأمور سارت على طبيعتها ، لكانت محاولة الانقلاب هذه قد أنتهت في مهدها ، ولكان محتملا ان يتغير قدر المشير •• وان كانت الاعمار بالطبع بيد الله •

على ان الله يسبب الأسباب •

وقد جرت المأساة بالطريقة التى جرت بها ، والتى أدت الى انتحار المشير ، بسبب عامل جديد ظهر وقتها فى الموقف •

بسـببب رجل جديد ، ومركز قوة جديد ، دخل المسرح فى الوقت المناسب •• لكى يرسم النهاية بالطريقة التى جرت بها !

لاداعي هنا لأن نكرر احداثا معروفة •

لقد استقال عبد الناصر بعد هزيمة يونيو ، واعاده الشعب فى اليوم التالى ، وبقى عبد الحكيم عامر فى بيته ، مستقيلا من منصبه ، وبدأ انصاره من الضباط يرسمون خطتهم للاستيلاء على السلطة بأسمه • وتحول بيته الى قلعة من المسلحين العسكريين والمدنيين ، كل هذا معروف •

ولكن كل هذا كان يمكن ان ينتهى كلما انتهى كل خلاف سابق بين عامر وعبد الناصر .

فماذا حدث اذن ؟

كان عبد الناصر على يقين ، كما قلت ، من ان أى تحرك يتم باسم المشير انما هو عمل يقوم به الآخرون باسمه .

ولكننى فوجئت فى تلك الأيام بأن يقينه هـذا تزعزع ، فوجـدته يقول لى :

ـ تصور ماذا يقول عبد الحكيم ؟

ـ ماذا يقول ؟

واذا بعبد الناصر يروى لى كلاما لا يمكن ان يصدر عن عبد الحكيم ، وكيف أنه يهدد ، ويصرح علنا بأنه يتحدى عبد الناصر ، وأنه سيفعل كذا وكذا .. الخ .

قلت للرئيس :

ـ هذا الكلام كله كذب !

وكنت واثقا مما أقول .

بعد النكسة مباشرة ، وبعد استقالة عامر ، ذهبت أزوره فى بيته ، وخطر ببالى ان ظروفه المالية قد لا تكون طيبة . وكنت قد بعت لتوى محصـول البطاطس فعرضت عليه المبلغ الذى معى . ولكنه رفض قائلا أنه باع قطعة أرض ، ولديه ما يكفى من المال فى الوقت الحاضر . ثم تطرق الحديث الى الوضع الذى هو فيه ، فاذا به يقول لى :

ـ كان الله فى عون عبد الناصر . ان غاية ما يهمنى هو ان يوفقه الله فى هذه الأزمة . وأنا مستعد أن أعمل معه فى أى عمل موقع يختاره لى .

ومثل هذا الكلام لايقوله بالطبع رجل متمرد .

ولكن عبد الناصر قال :

ـ لماذا اذن أدعوه للحضور ولا يحضر ؟

قلت :

ـ لا أظن أنه يفعل ذلك ٠

قال عبد الناصر :

اذهب اذن واطلب منه الحضور ٠

فأسرعت الى بيت المشير ٠

وسألته : هل صحيح أنه يرفض الذهاب لعبد الناصر ؟

فدهش المشير وقال :

ـ لو طلبنى عبد الناصر ٠ وطلب منى واحدا من ابنائى ليذبحه ٠٠ لصحبت أبنى وذهبت ٠

ولم أجد نفسى فى حاجة الى رد ابلغ من هذا ٠ وأسرعت الى عبد الناصر وأبلغه ٠

ولكن عبد الناصر بدا غير مقتنع ٠ وادركت أنه تحت تأثير تقارير كاذبة ٠ ومتقنة صيغت بعناية لكى تضلله من الحقيقة ٠

وفى اللحظة التى هممت فيها بأن اناقش هذه التقارير ، جاء محمد أحمد يعلن أن المشير يطلبه على التليفون ٠ فذهب عبد الناصر ليرد على التليفون فى مكتبه ٠ واذا به يعود بتقرير عن مقابلة تمت فى بيت عبد الحكيم عامر بينه وبين ثلاثة من أعضاء مجلس الأمة فى ذلك الوقت ، منهم اثنان من محافظة المنيا ، وواحد من أحدى محافظات الوجه البحرى ، ممن يجيدون انتهاز الفرص ويصيدون فى الماء العكر ٠

والتقى الرجلان ، وصفى الموقف ، وأنتهت الأزمة ٠ أو على الأقل هذا هو ما بدأ لى ٠

كان كاتب التقرير رجلا من محترفي التسلق ، والهتاف ، في عهد الاحزاب قبل الثورة ، واتاح له الفرصة أحد المحافظين ، فعينه رئيسا لقرية ثم استمر يغدق عليه • ويسمنه • وجاء وقت وصفه فيه احد التقرير بأنه « تاجر رقيق » • وبعد ثورة التصحيح حول هذا التقرير الى المدعى العام الاشتراكى • ومع ذلك افادته خبرته الانتهازية ، وما يزال له دور فى الحياة العامة والكسب الحرام • وفى الأيام الأخيرة هوجم أكثر من مرة فى الصحف • وتردد فى محافظته أنه مسئول عن مصرع أحد الطلبة •

وادركت من أسم هذا الرجل • ومن التقرير ، ان المحاولة ما تزال مستمرة للايقاع بين عبد الناصر والمشير ولكن الرجلين التقيا رغم ذلك ، وصفى الموقف • أو هكذا خيل لى •

فقد سافرت بعد ذلك الى قريتى • واذ بالرئيس يستدعينى على وجه الاستعجال وعدت لاجده يقول لى ان المشير قد عاد مرة أخرى يمتنع عن لقائه ، وانه قد حول بيته الى قلعة مسلحة ، وانه يهاجم عبد الناصر ويقول عنه كذا وكذا •

ومرة أخرى ذهبت الى بيت المشير •

وفى هذه المرة قلت له :

ـ الى متى يترك الآخرين يعبثون بالعلاقة بينك وبين عبد الناصر •

قال المشير :

قلت :

ـ هؤلاء المسلحون فى بيتك • والضباط الذين أخرجتهم من السجن لتقدموا معك •

قال :

ـ أنا لم أفعل شيئا من هذا • لقد آخرجهم شمس بدران وجاءوا الى البيت دون دعوة •

قلت :

ـ من أجل العلاقة بينك وبين صديق عمرك ، ورفيق نضالك ... أعدهم الى حيث كانوا ، وتعال قابل عبد الناصر . وأنا أشهد الآن ان هذا تم فعلا .

وجاء عامر الى بيت عبد الناصر .

ولكن الجو فى البيت لم يكن عاديا .

كان فى البيت آخرون من رجال الثورة ، يجتمع بهم عبد الناصر . وبعضهم من خصوم عامر الالداء ، ومن الذين احترفوا فيما مضى الايقاع بين الصديقين .

ولاحظت حركة غير عادية داخل البيت ، وخارجه ، اجتماعات مختلفة فى حجرات مختلفة ، وحراس يتحركون هنا وهناك .

وسألت محمد أحمد فقال لى :

لقد تقرر أعتقال المشير :

وأحسست بالأرض تميد تحت قدمى ، وصرخت :

ـ مستحيل !

لم يكن قد سبق لى ان تمردت على قرار لعبد الناصر .

ولكننى هذه المرة لم استطع ان أقبل . واعلنت انني مستعد أن اموت دفاعا عن الرجل الذى صحبته بنفسى من بيته .. والذى أحسست اننى لن أكون رجلا مالم أعده بنفسى الى بيته .

وكان تصرفى مفاجأة بالطبع .

ولكن المفاجأة الاكبر كانت تصرف عبد الناصر ، الذى وافقنى تماما على موقفى !

قلت له :

ـ لا دخل لى بما تفعل مع المشير ، ولكن لا تعرضنى للقول بأننى لعبت دور الطعم لاستدراجه ، لقد كلفتنى بأن أجىء به لتتفاهما ، فاذا كان التفاهم قد فشل ، فمن واجبى أن اعيده الى حيث كان ، وعلى الذين واقعوا بينك وبينه ان يذهبوا ويعتقلوه فى بيته .

وقد كان .

وافق عبد الناصر بلا مناقشة ، وسمح لى ـ وسط دهشة الآخرين ـ بأن أصحب المشير الى بيته فى أمان تام !

لماذا فعل عبد الناصر ذلك ؟ اعنى : لماذا وافق على ان يدع المشير يعود الى بيته بعد أن كان مقررا ان يعتقله ؟

من المؤكد ان حجتى كانت قوية . وهى أنه لا يجوز اعتقال رجل كلفت بأن احضره للتفاهم ، وعبد الناصر ـ رحمه الله ـ كان يقدر الاعتبارات التى تفرضها الرجولة .

ولكنى أعتقد أنه فعل هذا لدافع آخر أيضا .. هو ان قرار اعتقال المشير كان عبئا على عواطفه . وكان يسره أن يؤجله ، حتى وهو مقتنع بضرورته .

ولكن التأجيل لم يستمر طويلا ..

فقد انتهز الآخرون فرصة سفر عبد الناصر الى الاسكندرية وقرروا اعتقال المشير ، ونقله الى الهرم .. بحجة استجوابه مع ان استجوابه كان يمكن ان يتم فى بيته .

وتم الاعتقال فى مشهد لم يكن سهلا على مثل المشير ان يتحمله .

خرجت السيدة زوجته وراءه ، وهى تصرخ متشبثة به ، وتصمم على ان تذهب معه .. والجيران يتفرجون ويمصمصون شفاههم .

ولكنهم قالوا لها : لا يمكن ان تصحبيه .

وطلب المشير ان يتصل تليفونيا بعبد الناصر فوافق عبد المنعم رياض ، الذى كان يصحب القوة ، وطلب مكتب عبد الناصر . ولكن الجواب كان : لا !

ومن المؤكد ان عبد الناصر لم يكن ليرفض ان يتصل به المشير ، أو ان تصحب المشير زوجته ، ولم يصدر أية أوامر بهذا المعنى .

ولكن الذى فعل هذا كان الرجل الآخر ، البطل الثانى فى هذه المأساة !

كان هذا الرجل يتزعم مركز القوة الجديد الذى أعد نفسه لوراثة عبد الحكيم عامر ، وكانت مصلحة هذا المركز الجديد ان ينتهى عامر ، ولا تتاح له فرصة قد تؤدي الى عودته الى الصورة .

وكان طبيعيا لهذا يمنعوه من الاتصال بعبد الناصر . وان يتبعوا أسلوبا فى اعتقاله يقطع ما بينهما الى الأبد .. ويهينه الى حد يجعله يفضل الموت على الحياة .

ولا يهم هنا هل كانوا يعرفون أنه سيقتل نفسه أم لا .. فشخصيته لم تكن لتسمح بأن يعيش على أية حال بعد ما حدث له .

وهكذا ...

كانت شخصية المشير ، كرجل صعيدى بالغ الشهامة ، التى مكنت جماعة شمس بدران من ان تقوده الى المأزق الذى أنتهى بالنكسة .

ثم كانت شخصيته التى اتاحت « للرجل الآخر » ان يدفعه الى الموت ، عن طريق تعريضه لاهانة لا يحتملها .

ولكن من كان هذا الرجل الآخر ؟

أنه الزعيم الجديد لمركز القوة الجديد الذى جاء يرثه ، والذى كاد ــ لولا أنور السادات ــ ان يرث مصر كلها .

أنه : على صبرى !

قصته ، بتفاصيلها ، سنرويها فيما بعد ...

الفصل الحادي عشر

* القصة الكاملة لعلى صبرى .
* عندما وصل الانذار البريطانى كان من رأى على صبرى التسليم .
* قصة المادة الخرافية « ج » المسروقة من السوفييت .

أول مرة طلب فيها عبد الناصر من على صبرى أن يقول رأيه ، كانت بمناسبة الانذار البريطانى الفرنسى عام ١٩٥٦ . وكان رأى على صبرى : التسليم .

كان عبد الناصر قد جمع مجلس الثورة لاتخاذ قرار بشأن هـــذا الانذار . وكان على صبرى يحضر هذه الاجتماعات سكرتيرا للجلسه ، بوصفه مدير مكتب عبد الناصر .

وكان مفاجأة الانذار شافة على بعض الاعضاء الذين لم يتوقعوها . الى حد أن واحدا منهم ـ توفاه الله ـ قال لعبد الناصر : ان الانجليز يريدونك أنت .. فاذهب وسلم نفسك الى تريفليان .

وتريفيليان هذا كان السفير البريطانى وقتها ، وكانت اقامته محددة فى السفارة منذ بدء العدوان .

وكان من عادة عبد الناصر أن يسمع الجميع قبل ان يدلى برأية ، حتى لا يشعروا أنه فرض رأيه عليهم .

وفى هذه المرة طلب ان يسمع رأى على صبرى بين المتحدثين .

ونترك الجيار هنا يواصل الرواية .

مشاجرة فى المكتب :

كان اجتماع مجلس الثورة منعقدا والغارات الجوية مستمرة . والبلد كلها تغلى .

وطلبنى عبد الناصر لسبب لا أذكره الآن . فدخلت فى الوقت الذى كان فيه على صبرى يتكلم . وفوجئت به يترافع عن فكرة قبول الانذار البريطانى ، ويقول ان العناد سيدفع الانجليز الى قصف المدنيين بالقنابل .. وان هذا سيدفع الشعب الى الهياج علينا ، ويؤدى الى سقوط النظام .

واذكر ، للحقيقة والتاريخ ، ان عبد اللطيف البغدادى غضب لهذا الكلام ، وانضم الى الرأى القائل بالمقاومة .

وخرجت من قاعة الاجتماع وأنا لا أصدق ما سمعت من على صبرى ، ولا أطيق السكوت عليه .

وبعد قليل خرج على صبرى ، وصعد الى الطابق الأعلى فى مبنى مجلس الوزراء حيث مكاتب المخابرات . وكان قد تسلمها هو وصلاح نصر من زكريا محيى الدين ... فأسرعت الحق به . وأناقشه فى الكلام الذى سمعته منه فى الاجتماع .

قلت له : كيف خطر ببالك ان تطلب التسليم باسم الشعب ، وخوفا من هياجه ؟ انك لا تفهم الشعب . وواضح انك تأثرت بدعاية العدو الذى يحاول تحريضه . هل تعرف متى سيذبحنا الشعب حقا ، سيذبحنا لو خرج اليه عبد الناصر وأعلن التسليم .

فنظر لى طويلا ، ثم اجاب بعنجهية و « قنزحه » :

ـ بلاش تكلمني بالجمل المأثورة . افهم الموقف الأول وبعدين اتكلم . الانجليز هددوا بضرب الاذاعة وضربوها . والآن يهددوا بضرب الاحياء الأهلة بالسكان . يعني كل يوم يموت عشرين أو ثلاثين ألف .

قلت :.

ـ وماله ؟ مش حرب ؟ على الأقل الشعب يشعر بالتضحية ويدفع الضريبة .

فارتسمت على وجهه ابتسامة ، كأنه ينصت الى رجل ـ عقله على قده ـ وقال :

ـ احنا ح نبقى أقوى من مين ؟ أقوى من اليابان مثلا .. اللى سلمت أول ما انضربت بالقنبلة الذرية ؟

قلت :

ـ ولماذا تضرب مثلا باليابان ؟ لماذا لا تضرب المثل بعدونا نفسه .. الانجليز .. كم فتكت بهم قنابل هتلر ، وكانت عاصمتهم بلا دفاع أمام غارات الالمان الوحشية ؟ لماذا لم يسلموا ؟ اذا كنت خائفا على رقبتك .. أنها ستطير لو أعلن عبد الناصر على الشعب اننا قررنا الاستسلام .

واحتدمت المناقشة .

وفوجئت بنفسي ، وقد أعماني الغضب ، أهجم عليه ، واشتبك معه مصمما على ضربه .

لم ينقذ الموقف الا صلاح نصر . الذى تدخل فورا وابعد كلا منا عن الآخر .

ولم أذكر لعبد الناصر القصة ، ولكنى فوجئت به ، بعد ست سنوات ، يسألني عنها . ولا أعرف الذى أبلغه بها . ولكنى أرجح انه صلاح نصر .

ومع ذلك ...

فهذا الرجل الذى كان مطلبه التسليم أمام صدام جدى مع الاعداء ، لم يلبث ان صار رئيسا للوزراء ، ومركز قوة يرث المشير عامر ، وزعيما لمجموعة كادت ترث مصر كلها ، وتخطط لتسليم الحكم اليه .

كيف حدث هذا ؟

من المخابرات الى قوة الحراسة :

مثل هذه الغرائب لا يفهمها الذين لا يعيشون فى كواليس الحكم .

فالمواطن العادى يتصـــور ان الحاكم يعرف كل شىء ، ويملك كل شىء . وان سلطته مطلقة على الناس والأشياء .

ولكن الحقيقة ان السلطة دائما نسبية . وكذلك معرفة الحاكم بما يجرى حوله .. خاصة اذا كان فى ظروف رجل كعبد الناصر ، يخوض عشرات المعارك مع عشرات من القوى داخل البلاد وخارجها .

وقد يفيد فى شرح هذه الحقيقة ان نضرب مثلا بالرجل الذى كان موضوع حديثنا فى الفصل الماضى : شمس بدران .

فقد وصلتنى رسائل تبدى أبلغ الدهشة من النفوذ الذى وصل إليه تحت سمع عبد الناصر وبصره والذى جعله فى النهاية يخطط للانقلاب عليه بالقوة بعد نكسة ١٩٦٧ .

ولهذا أشعر أنه قد يكون مفيدا ان أعود مؤقتا الى قصته ، قبل أن استطرد فى رواية قصة على صبرى .

لقد تمكن شمس بدران من ان « يفرض نفسه » على السلطة من باب بسيط جدا : هو التسلل باعوانه تحت شعار الدفاع عن النظام .

كان يتولى أمن الجيش فى كل سلاح ضابط من الضباط الاحرار ينتمى الى نفس السلاح . فأثار شمس بدران المخاوف من هذا الأسلوب . واقترح على عبد الحكيم عامر ان يوضع مسألة الأمن فى قبضة واحدة . وطبعا كانت قبضته هو :

وقبلها كان شمس بدران قد استغل وجوده فى مكتب المشير ونقل الى المخابرات الحربية من يرضى عنهم من أفراد دفعته أساسا .

وهكذا ... بصورة طبيعية جدا ، وبلا ضجة ، صار أمن الجيش كله فى يده .

واذكر أن هذا أدى ، فيما بعد ، الى قلق بين الضباط الاحرار بالذات ، فقد وجدوا ان جهازا غير نابع من تنظيم بدأ يفرض نفسه ، وان كثيرين منهم أصبحوا على الرف .. لصالح شمس بدران .

وفى ١٩٦٢ ، كتب ضابط المدرعات سعد عبد الحفيظ خطابا الى عبد الناصر يقول فيه بالنص :

السيد / مدير مكتب الرئيس :

تحية طيبة وسلاما مباركا وبعد .

لقد نبهتنى الضجة والخلاف حول حقائق ثورة سنة ١٩١٩ ودور أفراد الجهاز السرى بها الى ان اقترح ما يلى :

فى نطاق القوات المسلحة مهد لثورتنا المجيدة ، واعد لها وقام بها نفر محدود من الضباط .. وبعد ان قامت الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ انتشروا فى قطاع الخدمة العامة على اختلاف مناحيها .

فمنهم من كانت له ـ وظل على صلة بأحد ابناء الثورة ذوى المناصب المسئولة ففتح له فرص العمل فى المركز المناسب لامكانياته .

ومنهم من تقطعت عنه هذه الصلة فانطلق بعضهم بطاقاته ثوريته وتمكن من شق طريقه وبعضهم تعثرت بهم المقادير أو وقفت فى طريقهم المظالم أو الاحقاد .

والهدف الذى اريد أن أصل اليه هو ضرورة عمل حصر شامل دقيق للضباط الاحرار الأوائل ودور كل منهم حتى قيام الثورة .. ثم يتبع بحث الظروف التى تمر بكل منهم حاليا .

والغرض من ذلك :

أولا : استغلال طاقاتهم الثورية العميقة الواعية بتكليفهم بالخدمة العامة فى المراكز الهامة التى تحتاج ذلك •

ثانيا : تسجيل أمين لفترة حاسمة من حياة امتنا للتاريخ والاجيال القادمة •

ثالثا : وفاء الثورة لابنائها الاحرار ورفع الظلم ـ ان وجد ـ وفتح الطريق لم تعثرت بهم الظروف •

ان الأمر يستحق العرض على السيد الرئيس بوصفه قائد الضباط الاحرار •

شكرا واحتراما •

وأوصلت الرسالة الى جمال عبد الناصر عن طريق سامى شرف ، فايفيدت الى بتأشيرة من عبد الناصر يقول نصها :

« الجيار •• أوافق على الاقتراح ويمكنك مع شمس عمل المطلوب ـ أولا : حصر الضباط الاحرار ، ثانيا : ما هو موقفهم الآن •• توقيع : جمال عبد الناصر » •

ولكن هذه التأشيرة لم تنفذ •

تهرب شمس بدران من عقد أى اجتماع لانجاز المهمة • لأنه كان قد حشد اتباعا لا يمتون للاحرار بصلة ، ولا يريد ان ينكشف ذلك •

وهو طبعا لم يرفض • ولكنه لجأ الى التسويف •

والتسويف من أهم الأسلحة التى يلجأ اليها الراغبون فى ممارسة السلطة من وراء ظهر الحاكم الشرعى • فالقرارات التى لا تروق لهم لا يرفضونها صراحة •• وانما يبتكرون الاعذار لا بقائها مجرد مشاريع على الورق •

والى جانب التسويف يوجد سلاح آخر ، هو التخويف : تخويف الحاكم من الشعب أو من ـ المؤامرات السرية ـ التى يدعون انهم على علم بها •

وقد لجأ الى هذا السلاح شمس بدران أيضا ، فى حادثة لا انساها •

كان ذلك بعد الانفصال السورى مباشرة • وجاء شمس بدران ، متسترا بالمشير ، ومعهما اقتراح غريب : هو ان ينشىء جمال عبد الناصر ، قوة مدرعات خاصة به ، تحرس بيته •

لماذا ؟

لأن التقارير المؤكدة تتحدث عن خطط وتدابير للقيام بانقلاب على عبد الناصر •

ووافق عبد الناصر • ثم سألنى عن رأيى فى الفكرة أثناء حديث خاص بيننا • فقلت :

ـ والله يا فندم •• هذه القوة سلاح ذو حدين •

فهى بمكن ان تحرسك ، نعم ولكن يمكن ايضا أن تقبض عليك وانت نائم فى سريرك •

ـ يعنى أيه ؟

ـ يعنى •• أنا غير مطمئن الى حكاية الانقلاب دى • الجيش يحبك • وعبد الحكيم عامر يحكمه باسمك ، والضباط معه لأنهم يعرفون أنه موضع ثقتك •

قال رحمه الله : أنا وافقت خلاص على تشكيل القوة •

والمسالة بسيطة •• نختار أشخاص نثق فيهم • أنت مش لك أخوات فى الجيش ؟

كان لى فعلا شقيقان : أحدهما فى المدفعية ، والثانى فى المدرعات •

وقال عبد الناصر :

ـ خلى سامى شرف يكلم شمس ، وانقل أخوك بتاع المدرعات هاته هنا .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

وأبلغت سامى شرف ، الذى أبلغ طبعا شمس بدران . ولكن أخى لم ينقل .

آسف ، أقصد أنه نقل ... ولكن الى اليمن ..

ولم أبلغ عبد الناصر طبعا ، فلم يكن أخى هو الذى ستعتمد عليه القوة . ولم أكن أبدو رجلا يتوسط لمصلحة خاصة .

ولم ينقل أخى فعلا الا عام ١٩٦٤ ـ عندما فوجئت بالمشير عامر يطلبنى تليفونيا ويسألنى : : فين أخوك ؟

وأفزعنى السؤال . فقد تصورت ان أخى ارتكب ما يؤاخذ عليه ، ثم عرفت عندما ذهبت الى المشير ، ان عبد الناصر يسأل عنه ، ويسأل لماذا لم ينقل . وتم تنفيذ الأمر أخيرا .

قد تبدو هذه القصة مجرد حادثة تفصيلية ، لا أهمية لها . ولكنها نموذج لأسلوب التسويف المقصود الذى سبق ان أشرت اليه . فشمس بدران كان حريصا ، عند تشكيل قوة الحراسة ان يختار رجالها بنفسه ، ومن أخلص الموالين له .. حتى يكون عبد الناصر فى قبضته .

هكذا يمكن ان تتم باسم الحاكم أعمال هى فى الواقع ضده . ويمكن ان تؤدى الى قرارات من جانبه تبدو غير مفهومه .

والقرار غير المفهوم فى حالة شمس بدران كان قرار تعيينه وزيرا للحربية فقد أصدر عبد الناصر هذا القرار ـ فى اعتقادى ـ لأن سلطة شمس بدران كانت قد تضخمت جدا دون ان تقابلها مسئولية رسمية يحمل عبئا أمام الرأى العام وكان العلاج الوحيد هو تكليفه بالمسئولية رسميا .

اليوم الحاسم :

على هذا النمط ، وان اختلفت الثورة ، كانت حالة على صبرى .

فعلى صبرى لم يكن أصلا من هيئة الضباط الاحرار .

وانما ربطت الظروف بينه وبين الثورة عندما احتاجت القيادة ، ليلة ٢٣ يوليو ، الى اجراء اتصال بالسفارة الأمريكية لمنع أى تدخل من جانبها . وكانت لعلى صبرى معرفة بأحد رجال السفارة .. فكلف بهذه المهمة .

وقد قام على صبرى بها على خير وجه ، بسبب ميزة خاصة فيه ، هى أنه : موصل جيد .

وهذه الميزة بالذات هى التى فتحت له الطريق بعد ذلك فقد عمل سكرتيرا ومديرا لمكتب عبد الناصر . وأثبت مقدرة خارقة على ان يوصل تعليمات الرئيس بكل دقة ، ويوصل للرئيس تقارير المرؤوسين بنفس الدقة .

ولم يكن غريبا اذن أن يكون أول منصب وزارى يتولاه هو منصب : وزير شئون رئاسة الجمهورية .

ولو استمر على صبرى فى هذا المنصب ، وفى حدود دور الموصل الجيد ، لكان مؤكدا أن يتغير مصيره .

ولكن الذى حدث هو أنه من خلال التوصيل الجيد ارتسمت له صورة عند المسئولين ، رشحته للاضواء ، وبدأ هو يقتنع بهذه الصورة ، ويتأثر بها ، يطمح على ضوئها الى مناصب أكبر .

وكان اليوم الحاسم الذى قرر مصيره هو اليوم الذى عينه فيه عبد الناصر رئيسا للوزراء .

لماذا ؟

لأنه بعد ان كان دوره تبليغ قرارات ، فوجىء بنفسه مطالبا باتخاذ قرارات . وهنا خذلته كفاءته . واكتشف أنه لم يخلق لهذا الدور الجديد .

ولانه لا أحد يجب أن يعترف بعجزه ، فقد بدأ على صبرى يمارس فن التموين لاخفاء العجز • ويضلل الرئيس عن الحقائق • ويتحول من موصل جيد بين الرئيس والحقيقة ، الى حاجز يعزل الرئيس عن الحقيقة •• ويعمل لصالح نفسه على حساب الصالح العام •

ولا حدود لما يمكن ان يروى عن عمليات التضليل والتلفيق التى لجأ اليها على صبرى فى الفترة التى رأس فيها الحكومة •

كانت القاعدة ، كلما طلب عبد الناصر تقريرا عن عمل أى وزارة ، أو عن أرقام الانتاج فى أى مصنعاً ، أو عن كمية محصول من المحاصيل •• ان تصاغ الارقام والمعلومات التى ترضى عبد الناصر وتخدمه •

وقد ضج عبد الناصر علنا من هذه الظاهرة ، فى خطاب القاهرة فى ٢٣ يوليو (ولا أذكر العام بالضبط) •• عندما روى للملايين التى تسمعه أنه طلب من أحدى الوزارات تقريرا عن موضوع معين وكرر الطلب مرتين ، فجاءه تقريران كل منهما عكس الآخر • ثم روى أنه وجه سؤلا واحــدا الى ثلاث وزارات فجاءته ثلاثة أجـوبة مختلفة تمـام ، ثم قال رحمه الله : يعنى عاوز أقول •• أصدق مين •• والا أعمل أيه ؟

وما قاله عبد الناصر هذا كان أجمالا للظاهرة •

أما التفاصيل ، فأعجب مما قد يخطر بالخيال • وسأضرب المثل بحادثتين طريفتين •• مما شهدت بنفسى ، لا مما سمعت •

الحادثة الأولى : ديكور الأرز :

كان ذلك أثناء احتفالات بعيد النصر فى بورسعيد •

وفى تلك الأيام كان عبد الناصر شديد الاهتمام بالتوسع فى زراعة الارز كمحصول تصديرى ممتاز • وكالعادة أعلن على صبرى عن انجازات كبرى فى هذا الباب ، وعن الآف لاحصر لها من الافدنة زراعت أرزا ـ تنفيذا لتوجيهات السيد الرئيس •

وكان من بين هذه الانجازات ثلاثة الآف فدان زرعت فى كفر الشيخ • وتقرر انتهاز فرصة سفر الرئيس الى بورسعيد لكى يمر بهذه الفدادين ، ويراها بنفسه •

ومعروف أنه عند زراعة الأرز تظهر شتلات الأرز مختلطة بشتلات الدنيبة • ويجب ان تفرز الدنيبة ويتم التخلص منها •

وعندما جاء الدور على فدادين كفر الشيخ ، التى سيزورها الرئيس ، لم يجد المشرفون شتلات أرز كافية • ولا أدرى هل قالوا ذلك أم لا • ولكن الأوامر كانت صريحة بأن الرئيس يجب أن يجد الأرض مزروعة •

وفعلا ، نفذت الأوامر • ولكن بفارق بسـيط : هو ان الثلاثة الآف فدان زرعت بالدنيبة •

أى أن هذه المساحة كلها أهدرت ، لكى يقام فيها ـ ديكور أرز ـ يخدع عبد الناصر •• ويحقق لعلى صبرى انجازا زائفا يغطى فشله •

الحادثة الثانية : خرافة المادة « ج » :

أما القصة الثانية ، فقد بدأت الى حد كبير كالقصص البوليسية •

كلام خطير عن مادة خرافية معجزة •• تزيد أى محصول الى خمسة أضـعاف • مادة سرقوها من الاتحاد السـوفيتى ! ونجح علماؤنا فى تصنيعها • واطلقوا عليها أسما رمزيا هو المادة ج •

وفوجئت بعبد الناصر يأمرنى بأن اذهب الى على صبرى لموضوع هام • فلما ذهبت أخرج على صبرى من درج مكتبـه زجاجة ، وراح يكشط الورقة الملصقة عليها بعناية ••• قبل أن يقدمها لى •

وسـألته : ما الحكاية ؟ • فروى لى « السر الخطير » لهذه المادة وأعاجيبها • وقال لى ان عبد الناصر طلب أن يسلموا لى زجاجة منهـا لاجربها فى محصول البطاطس فى بلدنا •

وكنت وقتها قد فقدت الثقة تماما بمسرحيات على صبرى جميعا • فرفضت •

قلت له :

ـ اذا كان كلامكم صحيحا ، فلماذا لا تجربون بأنفسكم ؟

قال :

انت عندك أرض وتفهم في الزراعة ، و ...

ـ ولهذا أرفض ، لأنني اذا فشلت فستقولون أنني السبب وأنني اسأت استخدام مادتكم السحرية هذه . اذا كنتم تريدون تجربة جادة .. فأنا مستعد ان أقدم الأرض ، وأن أهيئها للزراعة . ولكن الباقي يكون على ابتداء من غرس البذرة ، وانتهاء الى جني المحصول .

وقد كان .

هيأت الأرض . وجاء الخبراء . وذهب الخبراء . وغمسوا البذرة في مادتهم السحرية وتولوا المسئولية كاملة .

وبعد أيام ، كان عبد الناصر يبدأ أول جولة انتخابية له ، تمهيدا لانتخابات الرياسة عام ١٩٦٤ ، وانتظرته في صالون البيت لاصحبه في هذه الجولة . وكان المشير عامر ينتظره أيضا .

ونزل عبد الناصر الينا ، فما كاد يراني حتى فاجأني بقوله :

ـ أزيك يا « جي » بلغني انك اتغنيت .

ـ من ايه يا فندم ؟

ـ بيقولوا الفدان عنـــدك جاب ٣٠ طن بطاطس ، وبقيت بتلعب بالفلوس لعب .

ـ فظننت أنه يمزح . وقلت :

ـ والله يا فندم يجوز .. بس انا ما عنديش خبر .

فبدأ عليه الضيق وقال :

ـ هوه انت كل حاجة بنهزر فيها ؟

قلت بدهشة :

ـ أنا ما كنتش فاهم ان سيادتك بتتكلم جد •

ـ ليه ؟

ـ لأنك بتسألني سؤال ما أعرفش أجاوب عليه قبل أربع أشهر •

ـ ليه :

وهنا نحش هو ، وسكت لحظة ، ثم ضحك •

وسألته :

ـ من قال لك حكاية ال ٣٠ طن هذه ؟

قال ببساطة :

ـ علي صبري •

ثم تعجل الخروج لنكف عن الحديث في الموضوع •

وبنفس الأسلوب كانت محاولة علي صبري للتمويه على الرأي العام أيضا • فقد اشاع ـ وخدمة في ذلك فريق شعراوي جمعه وسامي شرف وغيرهم ـ أنه صانع السياسة الحقيقي ، ومهندس القرارات الاشتراكية ••• الخ •

وقد ادى ذيوع هذا الكلام على أنه شخصيا بدأ يصدقه ، ويتصرف على ضوئه في عهد عبد الناصر •

بل أنه بدأ يبني لنفسه شعبية على حساب عبد الناصر ، ويزايد عليه ، كما بدأ يستغل التنظيم الطليعي لصالحه •• وتورط في سلسلة من الاخطاء : بعضها وراء الكواليس ، وبعضها على المسرح في مواجهة عبد الناصر •

ومن هنا بدأت نهايته •

لعبة التنظيم السرى :

وكما حرص شمس بدران على ان يضع رجاله فقط فى جهاز أمن الجيش ، وحاول ان يفعل ذلك أيضـا فى القوة المدرعة التى تحرس عبد الناصر •• كذلك حاول على صبرى ان يفعـل بالتنظيم الطليعى ، مستعينا بسامى شرف وشعراوى جمعه وعبد المجيد فريد وباقى الجماعة •

كان عبد الناصر قد فكر فى أنشاء هذا التنظيم كثيرا •• خاصة بعد انفصال سوريا • ليكون العامود الفقرى للحركة السياسية فى مصر ، والقيادة المنظمة لها •

وكان المفروض ان تختار لهـذا التنظيم العناصر ذات التـأثير فى محيطها •• ليكون قائدا بالفعل •

ولكن الذى حدث أن احد الوزراء ــ مثلا ــ شكل مجموعته من كبار الموظفين الذين معه •• وبالتسلسل الوظيفى : وكلاء الوزارة فى المستوى الأعلى ، والمديرون فى المستوى الأدنى ، وهكذا !

أما المجموعات التى أشرفت عليها جماعة على صبرى ، فاختاروا لها العناصر حسب ولائها لاشـخصاصبهم • بصرف النظر عن وزنها وتأثيرها فى الجماهير •

وذات يوم ذكرت هذه الملاحظة بصراحة لعبد الناصر ، فقال لى :

ــ ولماذا تقول لى هذا الكلام •• أذهب وقول لهم • الست عضوا فى التنظيم •

قلت :

ــ لا ••

فدهش • ودهشت أنا عندما قال :

ــ لا ! أنت عضو فى التنظيم •

وأضاف :

ـ من دى الوقت عضو ، ومطلوب منك ترشيح أعضاء آخرين •
هل تعرف ستة أو سبعة أشخاص يصلحون ؟

قلت :

ـ اذا كنت قد عشت بجوارك وعملت معك طول هذه السنين ثم لم أعرف سبعة أشخاص يصلحون للعمل السياسى •• فأنا استحق ان تقذف بى من الشباك •

قال رحمه الله •

ـ بلاش • أجرى أكتب بيهم كشف وابعته لى مع سامى •

وبعد لحظات كنت قد كتبت الكشف ، وأذكر اننى وضعت فيه اسم فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر الآن) ، والسيد عبد العزيز كامل ، والدكتور عيسى عبده ، وغيرهم •

ونظر سامى شرف فى الكشف ثم قال :

ـ بلاش الشيخ عبد الحليم •

قلت :

ـ ليه بأه ؟

قال :

ـ لأنه موجود فعلا فى مجموعة •

ثم اشار الى اسم السيد عبد العزيز كامل وقال :

ـ وبلاش ده كمان •

ـ ليه ؟

ـ لأن ميوله •••

قلت :

ـ عارف أنه كان من الأخوان ، لكن الريس قال أنه أوز ناس لهم تأثير .. حتى اذا كانوا معارضين . ثم اننى أقدم اليك هذا الكشف لتوصيله فقط ، لا لتختار منه من تشاء وتستبعد من تشاء .

وسكت سامى على مضض .

وخرجت وقد عادت الى ذهنى صورة شمس بدران ، وحرصه على استبعاد أخى من قوة حراسة عبد الناصر . أنه نفس الأسلوب وان اختلفت الوسيلة . ولابد ان يكون الهدف نفس الهدف .

وقد ثبت بعد هذا ان استنتاجى صحيح .

ففى المجابهة الأخيرة بين فريق على صبرى وبين الرئيس السادات ، ظهر أنهم كانوا يعتمدون على أن رجالهم يشكلون كل الأجهزة الحكومية والسياسية .

ولكن ...

كما ان هذا لم ينقذ شمس بدران ، فانه ايضا لم ينقذ على صبرى ، بسبب بسيط : هو أنه فى عالم السياسة لايصح غير الصحيح ، ولا تدوم طويلا العاب الكواليس .

وليس فى العالم مركز قوة يمكن ان ينقل حركة التاريخ !

الفصل الثاني عشر

* ايام النكسة في بيت عبد الناصر .

* تليفونات في بيت المشير لقيادة المعركة من البيت !

* قبل وقف القتال .. كانت مصر تملك ٢٠٠ طائرة .

عاد جمال عبد الناصر الى بيته يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ، بعد بان تم تدمير سـلاح الطيران المصرى ، وصعد الى غرفته .. ثم اعتصم بها ثلاثة أيام ، لا يرى أحدا ولا يراه احد .

وفى مساء ٨ يونيو خرج فجأة ، وخرج مبتهجا ، واتجه الى القيادة والدنيا لا تسعه من فرط السعادة .

ماذا حدث ؟

المعركة من البيت .

لم أصـدق عينى عنـدما جئت من البلد الى القاهرة فى الأيام التى سبقت حرب يونيو ١٩٦٧ .

كان اليوم يوم جمعة . وكان التصاعد فى الموقف قد بلغ حدا يجعل الحرب أرجح الاحتمالات ولكن منظر الشوارع كان يبدو منظر مدينة مقبلة على مهرجان .. لا على معركة !

اللافتات على كل الجدران تصور اننا انتصرنا بالفعل .وفى كل الشوارع لوحات من القماش ، تتدلى بعض الشارع ، وتكاد تلمس زجاج سيارتى .. معلنة غاية الابتهاج بالنصر فى المعركة التى لم تبدأ بعد !

أحسست انى أشق بسيارتى مظاهرة ، أو ساحة مولد ، لا شوارع مدينة تستعد للقتال .

ووجدت نفسى اتجه ، دون وعى ، الى بيت المشير عبد الحكيم عامر . فهو الذى سيقود الجيش فى المعركة ، وأنا كنت من مجموعته فى تنظيم الضباط الاحرار ، ولا حاجز بيننا يمنع من ان أصارحه بخلجات نفسى .

ولكن المنظر الذى رأيته فى بيت المشير ضاعف من انزعاجى ، وجعلنى لا أجد كلاما أقوله .

كانت تجرى فى البيت عمليات نشـــطة لتركيب عـــدد هائل من من التليفونات ، تصل البيت بالقيادة ... حتى يتسنى للمشير ان يقود وهو فى بيته .

وأدركت ان ما رأيته فى شوارع القاهرة انما يعكس تصور القيادة نفسها للمعركة . وهو أنها « نزهة لتدمير اسرائيل » لن تكلف الا تركيب عدد من خطوط التليفون فى بيت القائد ، وعدة أثواب من القماش تكتب عليها شعارات الاحتفال بالنصر .

وأسرعت على الفور الى بيت عبد الناصر .

ورويت له ما شهدت فى شوارع القاهرة ، وفى بيت المشير فانصت لى دون ان يعلق .

ولكننى بعد هذا وجدت المشير قد إنتقل فعلا الى مقر القيادة .

ولا أدرى هل فعل ذلك من تلقائه ، أم نتيجة لتدخل من عبد الناصر • فالاحداث التى توالت بعد ذلك لم تتح لى فرصة للسؤال •.

حكاية الضربة الأولى :

سددت اسرائيل ضربتها ، صباح ٥ يونيو ، الى جميع المطارات المصرية •

ومع ذلك نزل عبد الناصر من غرفته ، فى ذلك الصباح ، دون ان يبدو عليه أى أثر للقلق !

ولم يدهشنى ذلك ، لسبب لا أدرى لماذا تجاهله معظم المتحدثين عن حرب يونيو حتى الآن • وهو ان خطة عبد الناصر ، وأوامره الى العسكريين ، كانت تقضى بأن نتلقى الضربة الأولى •• ثم نرد •

وكانت وجهة نظر عبد الناصر أنه لافرق فى حالة النصر بين ان نكون البادئين أو نكون المعتدى علينا • ولكننا سنفقد كل شىء لو بدأنا وهزمنا •

وقد كتب محمد حسنين هيكل فى تلك الأيام مقالين يحضران الرأى العام لقبول ضربة أولى تأتى من اسرائيل ، ويفسران لماذا يجب الا تبدأ بالهجوم •

وأنا الح على هذه النقطة لأن كثيرين قالوا بعد النكسة ، ومازال بعضهم يقول ، ان الاتحاد السوفيتى هو الذى منعنا من توجيه الضربة الأولى عام ١٩٦٧ • والحقيقة ان عدم توجيه الضربة الأولى كان قرارنا نحن ، وخطتنا نحن ، كما وضعها عبد الناصر ، ولو كان رأى السوفييت ان نبدأ بالهجوم لما أخذنا به •

ولم يكن غريبا ، لهذا ، الا يقلق عبد الناصر صباح ٥ يونيو بعد الضربة الاسرائيلية الموجهة الى مطاراتنا •

نزل من غرفته كما اعتاد ان ينزل كل يوم • وصحبته الى القيادة دون ان الحظ أى تغيير فى سلوكه وتصرفه •

ولكن ...

وعندما وصل عبد الناصر لم يكن أحد من كبار القادة هناك .

كانوا جميعا قد ذهبوا الى سيناء فى نفس الصباح ، ذهبوا فى قافلة من ثلاث طائرات الأولى تحمل المشير ، والثانية تحمل القادة ، والثالثة تحمل وفدا عسكريا من العراق برئاسة طاهر يحيى .. يرافقه حسين الشافعى .

كان الطيران الاسرائيلى ، كما هو معروف ، قد بدأ فى نفس الوقت هجومه . فتعرضت القافلة للقصف . وعادت طائراتها تبحث عن مطار تهبط فيه . وانتهت المغامرة بالهبوط فى مطار القاهرة ، وعودة القيادة الى مقرها بالتاكسى .

أثناء هذا كان عبد الناصر وحده فى القيادة ، يسأل عن تطورات القتال ، وتفاصيل خسائر الضربة الأولى ، وقدمت اليه فى البداية تقارير مرتبكة ، تحاول التمويه عليه ، ولكنه شيئا فشيئا بدأ يتبين حجم الكارثة .

وعندما وصل التاكسى الذى يحمل عبد الحكيم عامر ، لم يكن قد بقى شىء يمكن ان يتحدثا فيه .

وخرج جمال عبد الناصر من مبنى القيادة — حوالى الواحدة ظهرا — وقد تهدل كتفاه وتغيرت ملامحه ، ولم يعد يريد ان يسمع أو يتكلم .

وفى البيت صعد الى غرفته فى صمت تام . وأغلق الباب وراءه ، اختفى تماما .

اختفى ثلاثة أيام ...

الضربة المضادة .

ثلاثة أيام كاملة ، وأنا مقيم فى بيت عبد الناصر ، وهو لا يبرح غرفته ، وكل صلته بالعالم الخارجى عن طريق اسلاك التليفون .

ثلاثة أيام جرت أعنف معارك الحرب ، وهو لا يغادر حجرته ، ولا يقابل أحدا على الاطلاق ..

وأصبح موقفه هذا لغزا محيرا ، أحاول عبثا ان افسره لنفسى .

هل انهار عبد الناصر ، هذا شىء لا أتصوره ، ومع ذلك فها هو معتصم فى حجرته لا يشارك فى حرب تهدد بلاده وثورته ومستقبل شعبه .

وعاش السؤال بلا جواب حتى مساء ٧ يونيو عندما أمر عبد الناصر فجأة باعداد سيارته للذهاب الى القيادة .

ونزل عبد الناصر من غرفته وقد تحول الى شخص آخر ، مختلف تماما .

شخص شديد المرح ، مفعم بالسعادة ، متشوق الى المزاح .

كنت ألبس وقتها « البوشرت » العسكرى ـ وهو زى يشبه الافرول ـ فاذا به يمد يده الى فتحة الزى .. ويسحب من تحته فانلتى الى أعلى .. ويضحك !

فعل هذا بمجرد ان رآنى .

ثم كرر نفس المداعبة فى الطريق الى القيادة . وفى المصعد .

وكان هـذا بالطبع لغزا جديدا ، فظروف القتال والبيانات الصادرة عنه ، لم تكن تسمح بمثل هذا الابتهاج .

على اننى لم ألبث حتى عرفت السر : سر اعتزاله فى حجرته ، ثم سر مرحه وتفاؤله عندما خرج منها .

ان عبد الناصر لم يعتصم بحجرته ليهرب من المعركة ، ولكن ليدبر ضربة مضادة تغير بالعالم الخارجى ، ويطلب من أصدقائه فى هذا العالم ان يعينوه بقوة طيران جديدة تقلب الميزان على جبهة القتال .

ومن خلال هذه الاتصالات ، حصل عبد الناصر على ٤٥ طائرة من الرئيس بومدين ، وحصل من السوفيت على قطع غيار تكفى لاصلاح عدد كبير من الطـائرات التى ضربت على الأرض . وكانت لدينـا طائرات

أخرى ، مازالت فى صناديقها ، أمر باخراجها من الصناديق وتركيبها ، وبذلك تجمع لديه حوالى ٢٠٠ طائرة ، مستعدة لدخول المعركة على الفور .

وكان تقدير عبد الناصر أن ظهور هذه الطائرات فجأة سيقلب ميزان المعركة : لأنه أولا سيرفع معنويات قواتنا التى يئست من أى غطاء جوى ، وثانيا سيربك القيادة الاسرائيلية التى اطمأنت الى أنها لن تواجه بأى طيران مضاد .

ومن هنا كان تفاؤل عبد الناصر ، ومرحه ، مساء ٨ يونيو ، عندما نزل من حجرته لأول مرة ، واتجه الى القيادة ليبشرها بمائتى طائرة جديدة تحت تصرفها .

وكان آخر اتصال تليفونى قام به مع الأمم المتحدة ، يبلغ وفدنا هناك أننا نرفض وقف اطلاق النار .

ولكن ....

كما يقولون فى الأمثال : تأتى الرياح بمالا تشتهى السفن .

دبابات سعد الشاذلى :

كان عبد الناصر ، أيام انشغاله بتدبير هذه المفاجأة المضادة ، لايدرى ماذا حدث على الجبهة .

كان الجيش قد تفسخ أصلا .. وانسحبت بقاياه ، بأمر القيادة ، الى غرب القناة .

وكلمة « بأمر القيادة » هنا فيها تجاوز كثير ، فالواقع أنه لم تكن قد بقيت قيادة .

وبلغ من التفسخ أنه بعد الانسحاب الى غرب القناة ، أخذ سعد الشاذلى أفضل دبابات لدينا وعبر بها الى الشرق مرة أخرى . وهناك فوجىء بانه وحيد مع قوته ، لاتساندها أية قوات على جناحيها . فعاد الى الغرب .. ولكن بشخصه فقط .. تاركا دباباته ليأسرها الاسرائيليون .

كان هذا هو الوضع عندما ذهب عبد الناصر ، مساء ٨ يونيو يزف الى القيادة بشرى الطائرات التى حصل عليها .

لم يكن يعرف ان الجيش أخلى سيناء باكملها ، ولم تعد لطائراته فائدة ، ولم تعد هناك قيادة تصلح لاستخدامها .

ولهذا فوجىء عندما دخل القيادة ، وطالعته الوجوه التى هناك .

فى الصالة الخارجية كانت جموع الضباط الكبار غارقة فى البكاء .

وعندما فتح باب مكتب المشير ، كان معه فى الداخل كمال حسين وعبد اللطيف البغدادى .. وتعبيرات وجوههم غير مريحة .

وبعد قليل خرج البغدادى وكمال حسين ، وبقى عبد الناصر وحده مع المشير .

ثم فوجئنا بالمناقشة بينهما تحتدم ، وتتحول الى شىء كالمشاجرة ، فأسرعت اقتحم الغرفة ..

كان واضحا ان عبد الناصر تحت تأثير صدمة لم يكن يتوقعها وفوجئت به يقول للمشير :

ـ احنا الأثنين ضحكنا على الشعب ، واحنا الأثنين لازم نمشى .

فهز المشير رأسه وقال :

ـ ونجيب مين ؟

ـ قال عبد الناصر :

ـ ما عرفش . لسه ح أفكر .

وساد الصمت لحظة .

ثم قال المشير :

ـ أيه رأيك فى شمس ؟

فقال عبد الناصر :

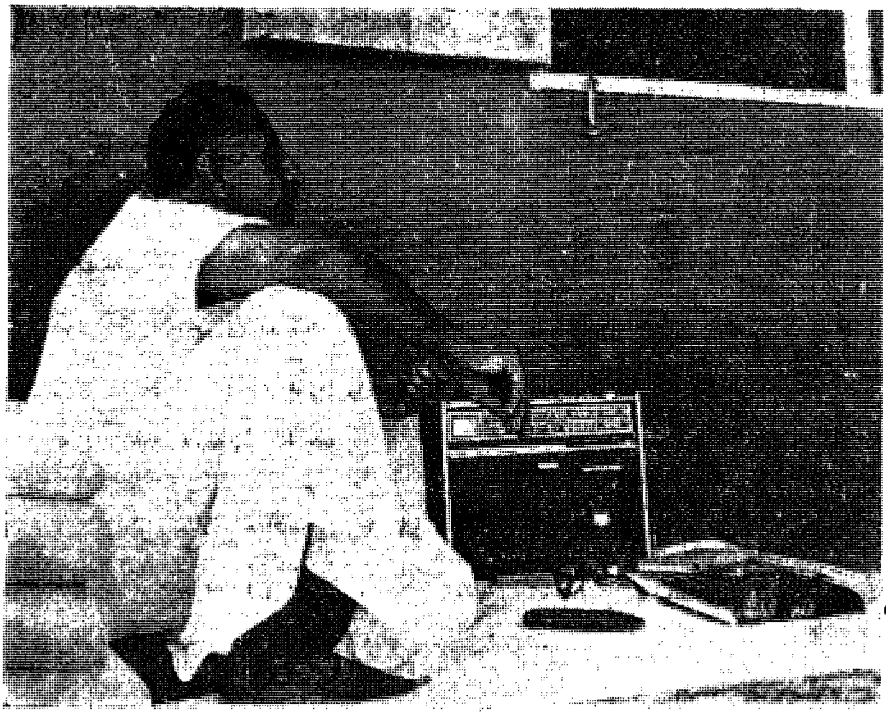
ـ أفكر ...

ثم استدار وخرج من الحجرة .

لكنه .. وهو يخرج لم يكن نفس الرجل . كان يجر قدميه عاجزا عن المشى . فخرجت وراءه أنا ومحمد أحمد ، ووقفنا ننتظر سيارته . واذا به يلتفت نحوى ، وقد انطفأ بريق عينيه ويقول بحسرة تمزق القلب : تصور يا « جى » .. خلاص ح نقبل وقف اطلاق النار .

ووصلت سيارته . فقال لى مرة أخرى قبل ان يركبها وقال بحسرة أشد : خلاص يا « جى » ح نقبل وقف اطلاق النار وركب السيارة ومضى . وركبنا السيارة الأخرى ، أنا ومحمد أحمد وسرنا خلفه وفى الطريق قلت لمحمد أحمد : الراجل ح يموت الليلة دى . لازم نشوف طريقة ننقذه .. ولكن ، هل كانت هناك طريقة ؟

كان عبد الناصر حطام انسان . أقصى ما يمكن ان نفعل له هو ان نعيده الى حجرته ، ونحرس بابها ... لينام .



الجيار مضطجعاً في رشاقة وهو يروي في حماس بعض اعترافاته وذكرياته

عند هذا الحد .. انتهت تقريبا ذكريات ، أو اعترافات ، السيد محمود الجيار ، كما رواها ل « صديقه » ضياء الدين بيبرس ، تارة ، والجهاز تسجيله تارة أخرى ..

ثم حدث أن ابتكر الزميل والأخ والكاتب القدير صلاح حافظ مبادىء جديدة فى أخلاقيات مهنة الصحافة ، اذ زينت له نفسه أن يأخذ نصيبا من نجاح الاتجاه الجديد الذى غير به ضياء وجه الصحافة العربية والمصرية ، فقرر أن يضع إسمه على ذكريات الجيار ، بعد أن اقترن نجاح روزاليوسف وعودتها الى مجدها ، باسم ضيفها الجديد ضياء الدين بيبرس .

ولكن هذا القرار جاء متأخراً .

فمن ناحية ، كانت مساحة ما يمكن أن يسمى ب « الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر » فى ذكريات وخيال الجيار قد شارفت على النهاية ، مثل

بئر يترول استنزفت مواردها ... ومن ناحية أخرى فان ملكات الاستاذ صلاح وقدراته البيانية لم تطاوعه ولم تؤهله لفن كتابة المذكرات السياسية أو الشخصية .. وهو فن شاق ، حساس ، يفرض على كاتب المذكرات أن يكون مثل العنصر الكيميائى المساعد (وهو ذلك العنصر المحايد الذى لا يضيف من نسيجه أو تكوينه الى المادة الناتجة من التفاعل) ، أو أن يكون مثل ابرة الأسطوانة التى تقدم اللحن المحفور على الأسطوانة دون أن تزيد عليه ... أو مثل ساعى البريد : يوصل الرسالة دون أن يدس فيها أو عليها سطوراً جديدة !

ولكن صلاح حافظ ـ بعد أن قرر أن يرث ضياء حيا فى ذكريات الجيار ـ لم يستطع أن يكون عنصراً كيمائيا مساعداً ولم يستطع أن يكون ابرة أسطوانة ولم يستطع أن يكون ساعى بريد !

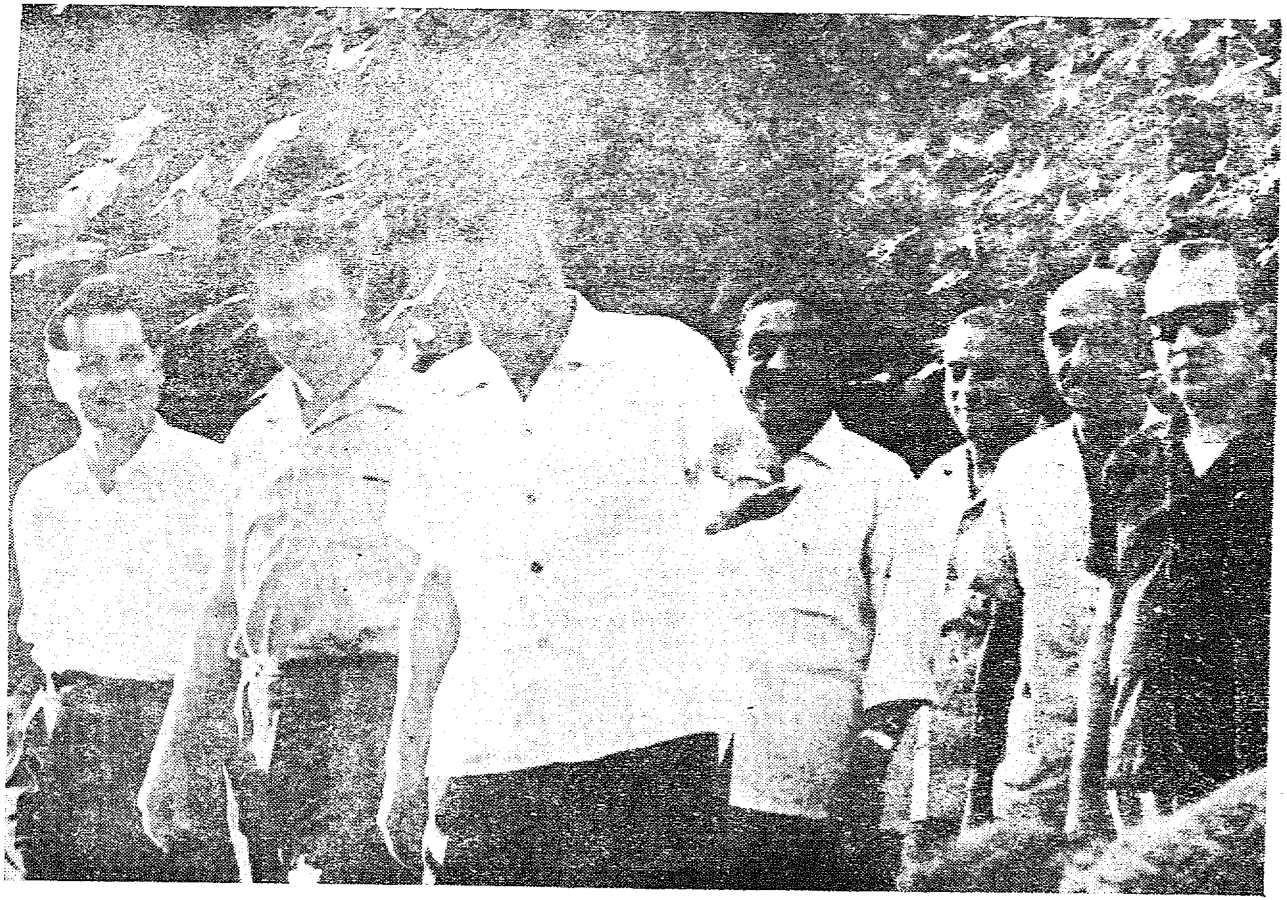
لم يستطع صلاح حافظ الا أن يكون الكاتب السياسى البساحر والقدير صلاح حافظ : فوضع الكلام فى فم الجيار بدلا من أن يأخذ الكلام من فم الجيار ... واذا بالجيار ، شاهد الملك الذى يروى الأسرار الشخصية للرئيس الراحل العظيم ، يتحول فجأة على يد صلاح الى فيلسوف سياسى من عباقرة الدياكتيك ، يحلل التناقضات الداخلية للاتحاد الاشتراكى ، ويتغزل فى السوفييت ، ويصول ويجول بين النظريات السياسية المعاصرة !

ولم يعترض الجيار على ذلك حتى الآن طبعا . بل انه مستعد لأن يبصم على كل ما يكتبه صلاح باسمه مادام هذا يضمن له ألا تختفى صورته أو اسمه من روزاليوسف العزيزة ... حتى لو تحولت الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر الى : « المرافعات الحماسية عن ايدلوجية صلاح حافظ السياسية » !

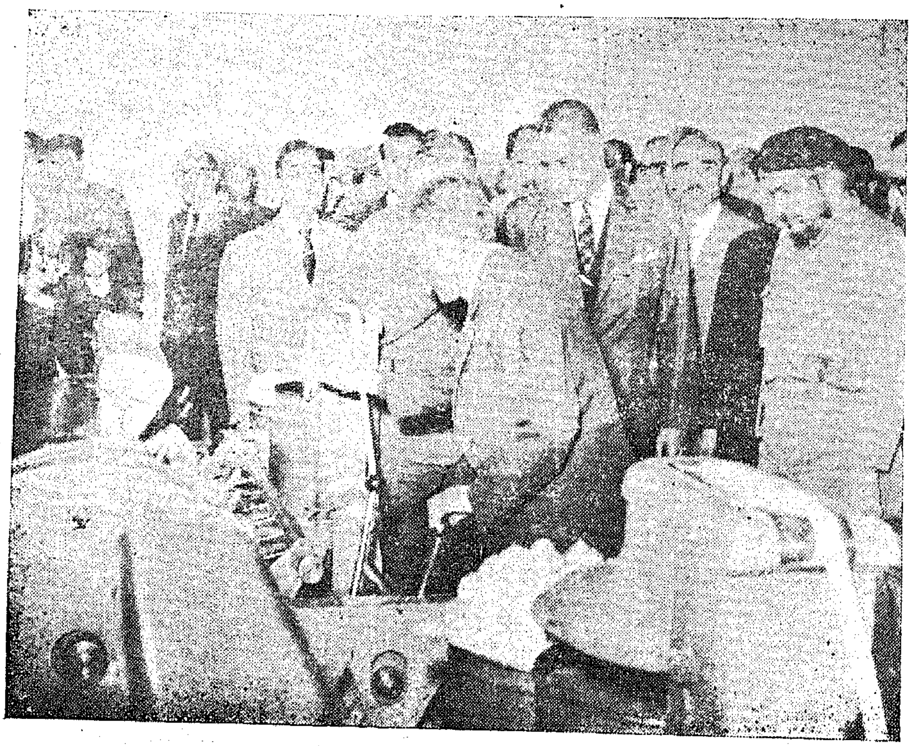
.. ولأن حساسية صلاح ورقته وروح الفنان فيه تأبى عليه أن يأكل لحم أخيه بارداً ، فانه فضل أن يقترن استيلاؤه على حقوق وجهد ونجاح ضياء الدين بيبرس باصطناع خناقة معه من طرف واحد على صفحات « روزاليوسف » ، وقد تكرم صلاح فى هذه الخناقة بمونولوج قذف وتشهير فى حق أخيه وصديقه المحروم من حق الدفاع عن نفسه ، ضياء ، الذى رأى أن يضع المسألة برمتها أمام القضاء ، متمنيا أن يكسب القضية وصلاح معاً .

ولكن تلك قصة أخرى .

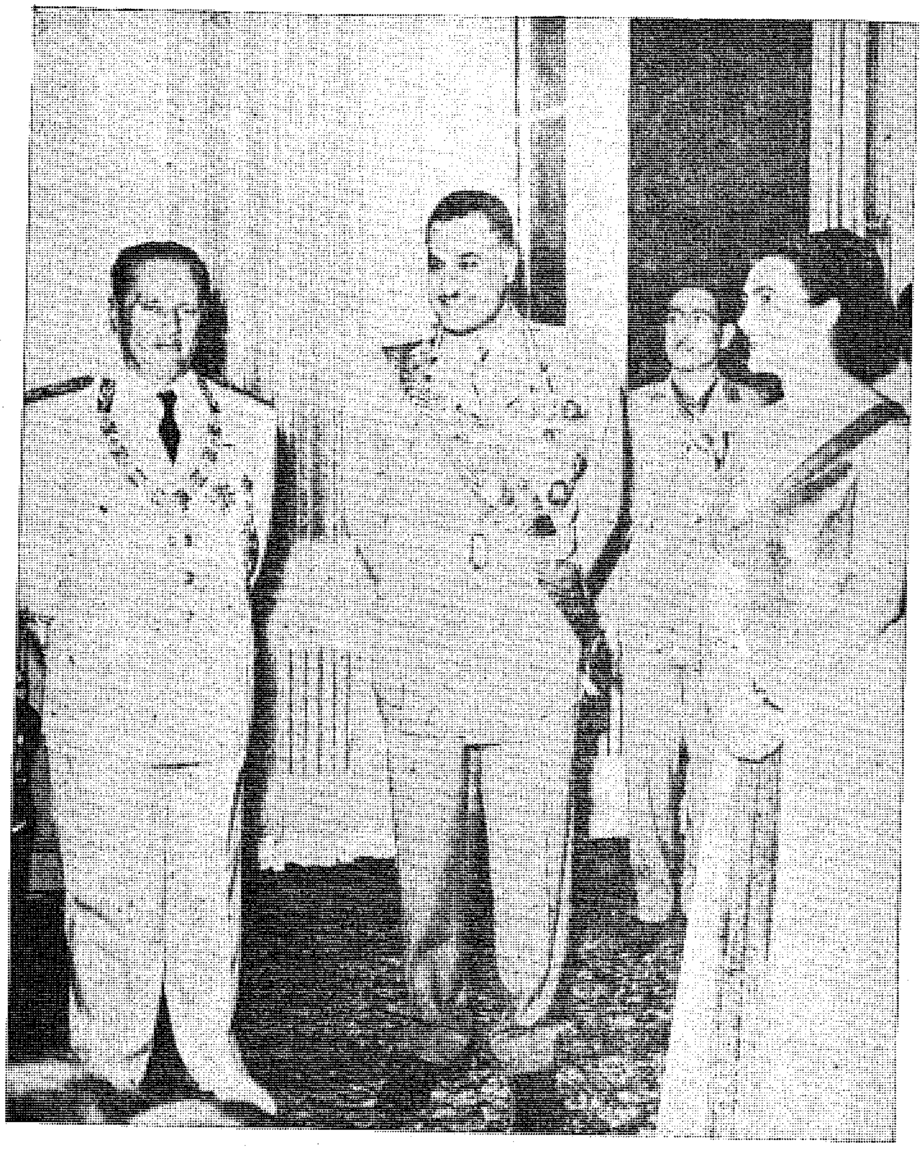
والمهم أننا نستأذن الآن فى أن ننشر على الصفحات التالية مختارات من الصور التى اختارها لنا من أرشيفه الخاص السيد محمود الجيار ، الذى كان يدلله الرئيس الراحل عبد الناصر باسم « جى » ، أطال الله عمر « جى » الى حوالى مائة وخمسين سنة .



فى تسخالطوبو مع الأطباء السوفييت ومحمد أحمد و « جى »



« جي » في منتهى الأناقة بصحبة الرئيس



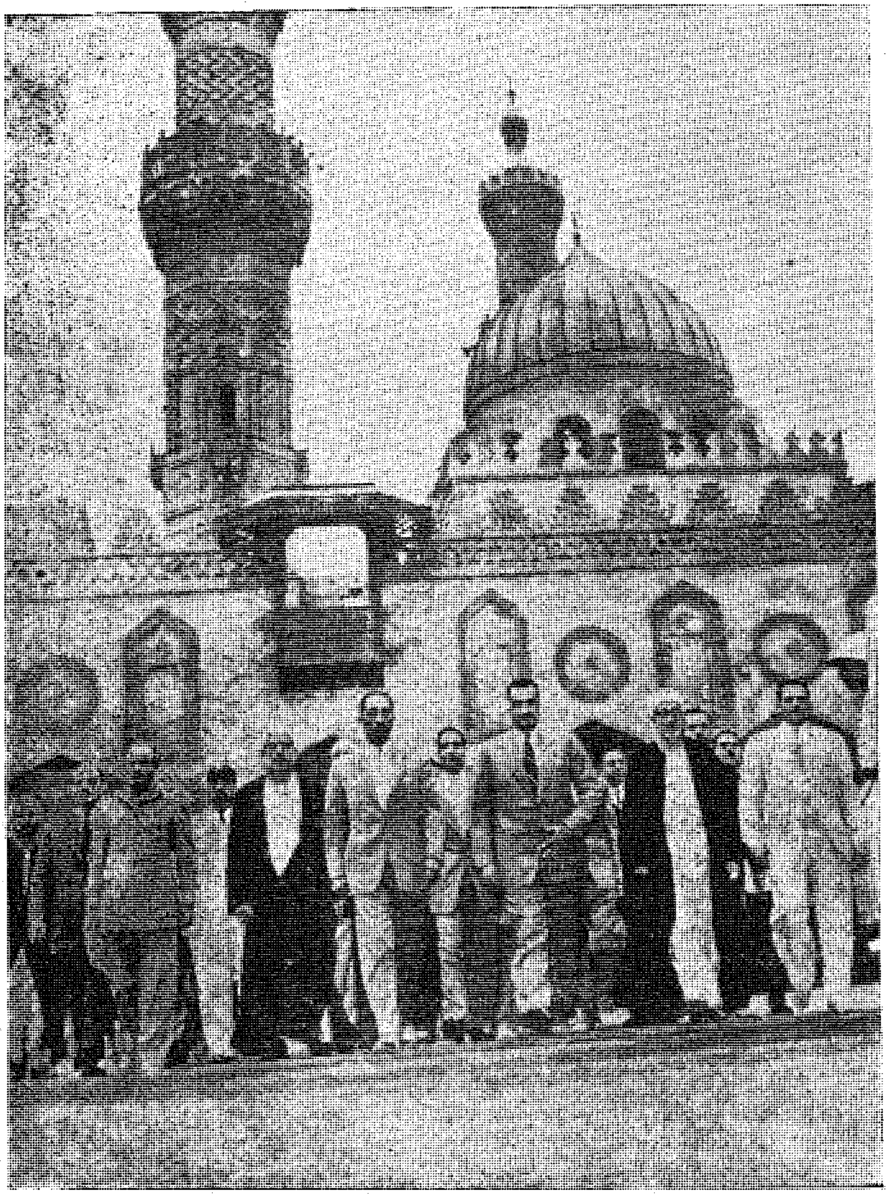
« جى » وراء الرئيس فى ضيافة تيتو ... ويلاحظ بريق « الذكاء » فى عينى « جى »



« جي » يبتسم ابتسامة عذبة بصحبة الرئيس



« جى » يساهم فى صنع التاريخ فى بريونى
(اقرأ فى هذا الكتاب كيف توسط « جى » لعبد الناصر
عند السوفييت لكى يمدوه بالسلاح !!!)



« جى » ودائما « جى » لا يفارق الرجل أبدا فى الزيارات



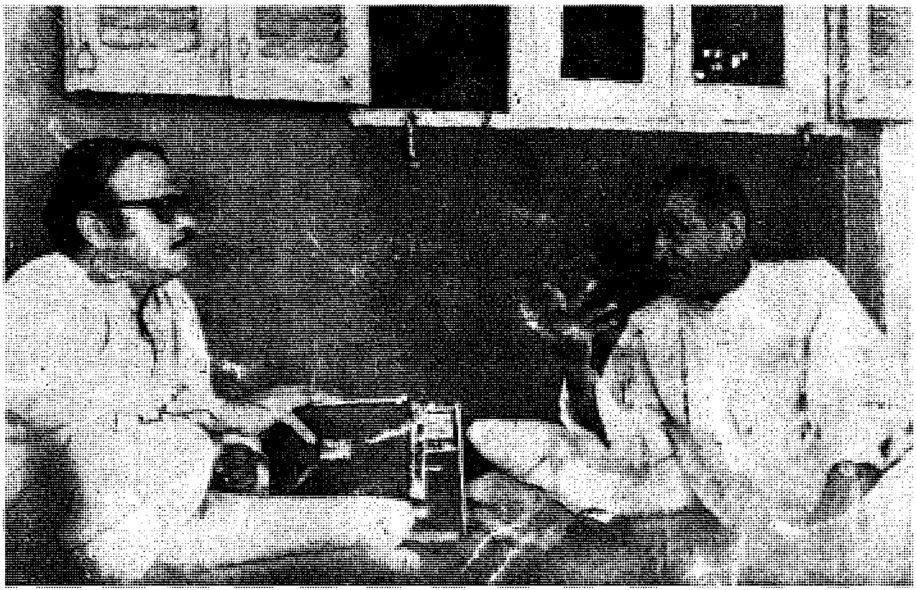
« جى » بصحبة الرئيس فى الحج



« جى » يحملق بعينيه فى حالة تفكير عميق

مطابع
الشركة المصرية للطباعة والنشر
بالقاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٣٩/٧٦
الترقيم الدولى ٩٧٧/٧٠٤٧/٠١٠٠ ISBN



خطر لاحدى كبريات صحف الخليج أن تطلق على ضياء الدين بيبرس لقب نجم الصحافة العربية لعام ١٩٧٥ — ويبدو أن ضياء الدين بيبرس لا ينوى أن يفرط فى هذا اللقب بسهولة بالنسبة لعام ١٩٧٦ وما بعده . ولا يزال كتابه المثير « هوامش على قصة محمد حسنين هيكل » أروج كتب الموجة السياسية فى العالم العربى — بعد أن كان فى طليعتها من الناحية الزمنية — على الرغم من حظر دخوله فى كثير من أقطار العالم العربى .

وقد زرع ضياء الدين بيبرس فى الصحافة المصرية والعربية « موضة » استجواب العظماء والصعاليك عن ذكرياتهم فى عهد عبد الناصر وما بعده . وبعد أن كان يسعى وراءهم .. جاء الوقت ليسعوا هم اليه .. والصورة هنا تمثل ضياء فى عزبة محمود الجيار يستمع اليه .. ويسجل له .. ويصوغ ويرتب ذكرياته ..

الناشر : مكتبة مدبولى - القاهرة